رواية

العزف بالضفيرة و رقبة الأوزة



علاء حامد

العزف بالضفيرة

و

رقبة الأوزة

علاء حامد

(١)

استيقظت كفر المساعيد على خبر ينتقل من بيـت إلـى بيـت .. تصاحبه الزغاريد ..عدوى الفرحة تسـرى جرثومتهـا فـى البيـوت المتراصة وعيطة المدروش يصيح بصوته الأملس وهو يهرول داخل شوارع القرية " العمدة مات ".فى البداية تشكك الناس لكن بعد أن أعلن" مسعود " الخبر فى ميكروفون المسجد تدافعت الجموع لتـرى الجسـد المسجى فى نعشه داخل صحن المسجد . الصدور المتخنـة بـالجراح بدأت تندمل .. عذاب الآلام المبرحة تلاشى.. الهـواء الـنجس الـذى يتنسمه الناس أصبح طاهراً .. الآهات التى أرتفعـت لعنـان السـماء تحولت لدعوات شكر.. حتى الشوارع التى لعنت خطوة بدأت تتغنى مع عيطه المدروش وهو يعلن الخبر السعيد .. لقد ضاق الناس به تحـول رمز السلطة فيه إلى حبل خانق يطوق رقابهم .. سلب منهم أجمل مـا فيهم.. إرادتهم وتركهم عرايا..إقتنص ذاتهم وحولهم إلى مجموعة مـن الدمى يحركهم بخيوط فى يده كيفما شـاء.. أفسـد حيـاتهم .. حـول المفاهيم السهلة البسيطة إلى ألغاز يصعب فهمهـا .. حـول أمـانيهم المتواضعة إقتناء جاموسة .. إمرأة .. الجاموسة تدر الـبن والمـرأة تحلبها .. الزراعة تصح .. الولد يفلح فى المدرسـة .. البنـت البكـر تتزوج بفحل يشق بكارتها.. طبخة زفر ترم العظم .. نفسـين جـوزة معمرة حشيش !! كل هذه الأمنيات البسيطة حولها إلـى حلـم كثيـف الظلال تحت شمس محرقة.. عالم مبهرج بكل الألـوان المسـتحيلة .. وعدهم بجنة فيحاء يقطفون من أشجارها فاكهة رضوان.. بحياة حافلة

يجدون فيها كل متعهم الحسيه .. ولم يفى أبداً بوعده خـذلهم بعـد أن حصل منهم على المقابل .. إشترى بوعده ذواتهم..لم يكن مثـل عمـد زمان .. يسرق الأرض والمرأة كما فعل صلاح منصور فـى فيلمـه الشهير "الزوجة الثانية" ومحمود مرسى "جواز عتريس من فؤاده باطل" بل سلب منهم ما هو أثمن .. هويتهم إنتمائهم لأنفسهم .

اليوم تصدح النفوس بشقشقة الأمل ومسعود متعمداً يعيد تلأوة الخبر مرة تلو أخرى فى الميكرفون بصوت شفافه تحت البهجة ضفاف نبراته .. لقد أستنطق الخبر فرحة الناس البكماء .. إسـتولد مـنهم مشـاعر التحرر من رق عبودية العمدة .. الفكاك من حبله الذى يطوق رقابهم.. لأول مرة يفرحون لسيرة الموت..يسيرون فى الشـارع قفـزاً خلـف نعشه.. تنفسوا الصعداء وهم يوارون الجثة التراب ..دفنوا معها الفزع الذى خيم على حياتهم .

كان عجوزاً أحنى عليه الدهر بكلكله .. متهافت البنيـة.. مقـوس الظهر .. منكفئ الكتفين ..تائه الذاكرة .. كلما كح جيص..أفلـت مـن دبره صوت غليظ الأطراف لا يتناسب مع قوامه الهش لكنه كان خبيراً بطبائع النفوس .. استطاع إذلال الناس بعد أن تعـرف علـى مكـامن ضعفها..أدار ظهره للقرية..تعامل معها مثل البلهارسيا.. يأتى لزيارتها كل شهر بالكاد يمكث فيها عدة أيام يعود بعدها إلى موطنـه "جمصـة" حاملاً معه ما يجود به بسطاء الناس من خيـرات تدشـنها مطـالبهم البسيطة فك إشتباك.. فض نزاع..تسهيل إجراءات حكوميـة.. عـلاج "بلوش" فى مستشفى أميرى.. تسكين عاطل فى وظيفة.. ترقية موظف

كحيان ولكل مطاب تسعيره يقبض ثمنها نقداً لا يتعفف حتى ولو كانت العطية كوز ذرة مشوى أو حلبة لبن !! .

حول القرية بخبث ودهاء إلى حلبة صراع يـنطح فيهـا القـوى الضعيف وبعد أن يثخنه الجراح يتركه ينزف بين الحياة والمـوت دون أن يجهز عليه أو يسعفه.. فيظل معلقاً بحبل إنقاذ العمدة. بيـده وحـده انتشاله من محنته..لم يكن موته مفاجأة .. فقد ظل يعانى لسنوات طويلة من أمراض الشيخوخة البروستاتا .. وهن العضلات .. تيبس المفاصل .. لكن كل هذه الأمراض لم تضعف من إرادته فى تضييق الخناق على الناس ٠

السرادق والمعزيين و"فدوى" بقامته المنتصبة منذ الصباح البـاكر يستقبل أفواج من البشر اتت للتعزية فى وفاة شقيقه .. المحافظ وطلايله من أعضاء مجلس الشعب والشورى .. بعضهم يصـافحه والـبعض الآخر يحتضنه متمتما بعبارة مدونة فى أجندة المآتم "البقية فى حياتـك" "فدوى" سرحان.. ظن الناس أن مصاب موت أخيه الشقيق يجثم علـى صدره .. وأن فراقه يحز فى نفسه..لم يكن هذا سبب سرحانه المفاجئ فقد كان مشغولاً بالقضية التى تصدرت أخبار الحوادث فى الصـحف منذ أيام .. لقد استدعاه النائب العام ليبدأ معه تحقيقـاً حـول اتهامـه بتسجيل حصول رجل أعمال فلسطينى على بضائع قيمتهـا خمسـون مليون جنيه بدون ضمان حقيقى وما أثير بعدها حول حصـوله علـى عمولة تعدت الملايين.. لقد تخلى كل الناس عنه حتى الـوزير قريبـه

طرده من مكتبه شر طرده أيستفاق "فدوى" والمحافظ يشد على يده وهو يغادر السرادق وحوله حاشيته متمتماً:

البقية فى حياتكم يا فدوى بك .

لم تمر سوى أيام قلائل على وفاة العمدة أبو الزيك حتى عبر أهـل القرية عن فرحتهم بدهان واجهات البيوت بالجير .. لأول مرة تتـداول ألسنتهم كلمات محبوسة فى صدورهم " إلى جهنم وبئس المصير" كلب أجرب وراح" "عين شيطان وانقلعـت" تـنفس أهـل الكفـر نسـمات الحرية..أطلقوا لأحاديثهم العنان.. فـى القهـأوى والبيـوت ..علـى المصاطب.. داخل تجمعات الأفراح والمآتم .. انتهكوا سيرته المقدسة.. حولوها لمضغة تلوكها ألسنتهم..صلاته المشبوهة ببعض المسئولين .. الإتاوات التى كان يجمعها من الأهـالي لإقامـة مشـروعات وهميـة ..علاقته النسائية.. بصباص يغازل إصبع قدميه إذا لم يعثر على إمرأة يفقش صدرها .. وحكاية سعدية الغازونى التى استبقاها فـى الحجـز ثلاثة أيام وكان يستجوبها كل ليلة على سريره لم تعد خافية.. تناقلتهـا الألسن بلا خوف أو رهبة.

(٢)

شهور وكفر المساعيد تغط فى النوم بـدون عمـده يقودهـا لبـر الأمان.. هى مثل عشرات القرى التى حكم عليها المسئولون بالنفى إلى عصور الظلمة..مبانى طينية بلهاء متناثرة يتخللها قليـل مـن بيـوت الموسرين .. طوبية حمراء.. شوارع رمادية ضـيقة تمنطقـت مـن الأجناب بأكوام السباخ البلدى تفصح كميتها وحدة رائحتها عن ثراء أو فقر أصحابها..المدارس بها شحيحة والتعليم محدود الأفق يتم معظمـه من خلال حلقات الدروس الخصوصية..الحيوانات تشارك الإنس مبيتهم وطعامهم.. الصحة مشوشه..الجهل معشش.. إدمان الفقر وصل إلـى النخاع..حتى هؤلاء الذين يمتطون البشر لايطعمـون اللحـم الا أيـام الخميس والمواسم والأعياد.. الكل يشرب من بئر عفن عطن !! .

شهور مرت والقرية يحكمها "سناره" شيخ الخفـر يحصـل علـى الاتاوات "شكاير أرز" وفراخ وحمام وبيض إلى أن وصلت إشارة مـن المركز..حل بعدها وجوم.. أعقبه تساؤلات مضنية لـم تجـد أجابـة شافية..لم يكن أحد يتوقع فور"حبايب" بالعمدية فهو لايمت بصلة قرابة لواحد من سمان الساطه.. ولم يرشى وزير ولا خفيراً.. ربما كراماتـه التى تدأولتها الألسن فى الفترة الأخيرة ربما قد وصلت أخبارها لمـدير الأمن "سيد جزرة".. ولأنه رجل يؤمن بالأولياء وكراماتهم فقد سـانده ودعمه..حتى حبايب نفسه تشكك فى الخبر.. اندهش لاختيـاره لهـذا المنصب الذى تاق له وغازله فى أحلامه.. نافسه عليه عبدالخالق ثعلب وحسن تبارك وعبدالمعين أبو نواب وكلهم من وجهاء القريـة.. لكنـه

فازبه وحده..أن كرامات حبايب لاينكرها أحد ومعجزاته حلقت بأجنحة أخبارها من سماء القرية إلى القرى المجأورة..فى يده الشفاء والـدواء شفيت جاموسة عبد الودود الرفاعى بلمسة منه لضرعها ودرت اللاـبن بعد أن أمسكت عنه أسابيع طويلة.. عالج عرج حماره ابو زغله بنفخة شافية من فمه..لقد رآه الناس وهو يغسل يديه بلهب النار دون أن يتأذى أو يتألم.. وكان يفعل هذا غالباً ..قبل أن يأتى بمعجزاته..لكن المعجزة التى فجرت ينابيع الدهشة حادثة " حمودى " صـول النقطـة عنـدما استدعى حبايب متهماً أياه بالدجل والشعوذة وبعـد أن حمـى وطـيس النقاش بينهما خرج حبايب من الحجرة وفى يده مقود آخره كلب..لقـد مسخ حبايب حمـودى لكلـب..وأنتشـرت الشـائعة بطـول القريـة وعرضها..البعض صدقها والقليل رفضها لكن اختفاء حمـودى مـن النقطة فجأة ورواية "الضو" شيخ البلد و" سناره" شيخ الخفـراء دعـم القصة وقوى أعتقاد الناس فى خوارق حبايب .

ولم تكن هذه الحادثة هى الأخيرة فى سلسلة معجزات حبايب فقـد تطأول عليه "الزعنون" أمام جمع من الأهإلى..لم يرد عليه..كلمة واحدة فقط حملت فى طياتها الوعيد والنذير :

طيب!! .

وطيب هذه تم حل شفرتها عند منتصف الليل فى صرخات صادرة من "بسيمة" وفى أحضانها كلب أسود غطيس :

الزعنون بقى كلب..الكلب هو الزعنون .

لقد عثرت على الكلاب نائماً فى الفراش مكان زوجها ولما ربطـت هذه الواقعة بتهديد حبايب لزوجها..سحبت الكلاب باكية إلـى حبايـب تتوسله تستعطفه..قبلت قدميه.. لم يأبه لهـا ولا لتوسـلاتها.. مجـرد كلمات قليلة :

سيبى الكلاب وروحى بيتك وانتظرى .

إنتقل الخبر من مكان لمكان بسرعة البرق.. تحول إلى كـرة مـن الثلج .. وكلما تدحرجت تزايد حجمها وتماسكها خاصةً بعـد أن عـاد الزعنون إلى حضن زوجته فى نفس الليلة محاطاً بالقدسية والابتهالات والدعوات لا أحد يعرف كيف حدث هذا التحول ولا حتـى الزعنـون نفسه خاصةً بعد أن أشاع سناره أنـه رأى الزعنـون أثنـاء تحولـه وتضخمت روايته..تحولت كرة الثلج إلى جبل مـن المعتقـد يصـعب زحزحته وسفاية الخفير يهبط بقامته البلهاء بعد أيام من تلك الحادثة إلى قدمى حبايب يقبلهما مسترحماً..متوسلاً :

العفو والسماح ياعمده..بلاش..بلاش عشان خاطر أولادى.

يسحب البلغه من قدم العمدة يضرب بها رأسه مثنى وثلاث ورباع مستجدياً..مستغفراً:

حقك عندى ياعمده ..أستاهل ضـرب البلغـة لكـن كلا ـب لا..لا ياعمده .

بعد هذا اليوم تحول الخوف إلى عقدة راسخة...ربما أقـوى مـن الاعتقاد بالجنة والنار..فلا أحد رأى الجنة ولاتعذب فى النار أما حبايب فمعجزاته أقرب للعقل والقلب لأن شهودها وأبطالها أحياء فلو ادعـى

حبايب مع كل هذه المعجزات النبوة ما كذبه أحد سيحصد أعواناً أكثـر مما حصد الانبياء .

(٣)

اليوم الجمعة..الاستعداد للصلاة فى مسجد سيدى البرانى على قـدم وساق.. مسعود يكنس الأرضية بمقشة متهالكة.. كثيراً ما يحادثها "أنـا مثلك" .. الفرق أننى أستعملك برفـق أمـا أنـا فالنـاس يسـتعملون بقسوة..يعد الميكروفـون.. ينقـر بإصـبعه علـى جسـده المعـدنى ينادى"آلو..آلو" صوته قمئ..يدير المراوح..يهف المنبر بقطعة قمـاش بالية..يلقى نظرته الأخيرة على ما أتمه من عمل قبل أن يخطـو إلـى الشارع..يتنفس نفساً عميقاً..تغمره موجه رضاء..يلتقط الجردل..يملأه حتى حافته بالماء يغب الكوز الصفيح ثم يبدأ فى رش الشـارع.. رذاذ الغبار يتطاير.. الأرض تبتل..يفرشها بالحصر بعدها يتم غلق الشارع حتى انتهاء الصلاة بفرمان مقدس غيرمرئى غيبى لكنه ممهور باسـم الدين بموجبه لا يسمح لأحد بعبور الشارع من الجانبين بعد ضم بحره المقدس إلى حرم المسجد.

بدأ توافد الناس الواحد تلو الآخر للصلاة..لكل فرد مكان فى صحن الجامع..العمدة وأعيان البلد على يمين المنبـر والغوغـاء فـى ذيـل الجامع.. لقد تجرأ الدسوقى مرة وجلس فى صـدر المكـان..حوطتـه الأعين بالدهشة والتعجب..سورته بالتأنيب والتوبيخ فنهض من مكانـه إلى الذيل !!

(٤)

التوافد بطئ..عجوره..فى الزمن البعيد سائق يـؤجر المتعـة فـى سيارته بكافة المستلزمات بدءاً بالبيرة وانتهاء بالمرأة ومروراً بالمخدر ..عاد إلى القرية بعد مشوار إستغرق منه سنيناً ليشـترى بمحصـول السنوات الرديئة طين كثير..بضعة أفدنة..وحتى يتناسى الناس تاريخه المجلل برائحة الماضى الكريه.. أطال لحيته وأكثر الأحاديـث حـول سيرة الأنبياء والأولياء ومتعه الجنة وعذاب النار وبعد شرائه لقب حاج من بلاد الحجاز تحول إلى ديك رومى منفوخ والألسنة تقـرن إسـمه بلقب الحاج.. وقرر عجوره التقدم خطوة أخرى لتعزيز لقبه بالاحترام الواجب فبدأ ينخرط فى سلك المشايخ يؤم الناس فى الفجـر ويعظهـم ومن خلال هذا النهج الغيبى بدأت ذكريات قديمة تتلاشى ويحل محلها التقوى والطهارة فلجأ اليه الناس لحل مشاكلهم والفصل فى منازعـاتهم وكتابة العقود..تحول فجأة إلى مستشار دينى وأخلاقى وقانونى وهذا ما يحدث عادةً فى المجتمعات المتخلفة أن يسـود الغـوغ بعـد تحسـين صورتهم وتلميعها !!.

إتجه عجوره فور دخوله صحن الجامع إلى يسار المنبـر يلهـث.. "باجور" وسعت "فنيته" ينفث الدخان بكثافة يسير متخايلاً بكرشه الغليظ ورأسه الضفدعى..الكل يفسح له الطريق..الأرجل والأجساد وهو يمـر بينهم متجهاً إلى مكانه المفضل فى صدر الجامع.. يتيه بفتوته ورجولته رغم أنه منذ إنجابه "سالم" أصغر أبنائه لم يدخل حلبة النساء ولم تتذوق

إمرأته لعابه ولم تجدى معه وصفات الشـعوذة والـدجالين وحلقـات الذكر .

صلى ركعتين سنة ..جاس بجوار سيد حمـد يسـتمعان لخطيـب المسجد كلاهما على أحر من الجمر للانتهاء من الصلاه ليتجالسا سويا ..يسرد كل منهما للاخر الأحاديث المشوقة عن حياة الناس فى الكفر ..يتناولان سيرتهم الواحد تلوالآخر.. أزدحم المسجد بلحـم الأجسـاد النيئ.. لم يعد فى ساحته موطئ لقدم..جموع الناس تتوافد على الشارع الذى أغلقه منذ لحظات "مسعود" الحر لافح والشمس متوقدة.. لكن فى سبيل ا تهون كل المصاعب..الشيخ زهرى مازال سادراً فـى غيـه وهو يلقى خطبته العصماء..يشد الخيط على أشده.تنفر عروق رقبتـه وتجحظ عيناه..تنقذف الكلمات من بين شفتيه مثل حجارة من سـجيل.. طال الوقت.. نسى أو تناسى وهو يعيد ويزيد من معاناة البشر القاعـد فى الشارع لأداء الصلاة..الناس فى دهشـة..سـاعة وهـوعلى هـذا الحال..كل كلمة تنضح بالكراهية والحقد..لم ينطق ابداً بكلمة تسامح أو حب.. فمإذا حدث..أنه يستعيض بحديثه ما فاته أمـس عنـدما دعتـه "وجيدة" أم العيال على "عشوايه"..بطة مدهنة عله يقاسمها فراش هجره منذ زواجه من"فسيله" البنت البكر.. وحتى تساعده فى إنجـاز مهمتـه أشترت من "ابو لوايه" خلطة عين العفريت..وصفه لاتخيب.. تنعظـه وتوقد من رغبته وتزيد حميته.استحمت بماء قـراح مزجتـه بشـحرة عطر..وقامت حميدة البلانة بنتف شعر الإبطين والعانة..عروس فـى ليلة عرسها.. تجهزت وأطلقت كل قدراتها الوجدانية من عقالها حتـى تستثيره وتستحوذ عليه ليلة كاملة .. يدفئ فراشها البارد ويـدفع فـى

شرايينها دم الحب الغائب.. ظنت أن تحت القبة شـيخ وهـو يسـتثير حواسها بقفشاته المحببة لصدرها..بخبطاته البذيئة على ردفيها لكن فجأة وبعد أن التهم البطة بكاملها ومعها الوصفة راح فـى إغفـاءة طويلـة الأجـل..إسـتيقظ منهـا فـى الصـباح وهـى تهـزه تمصـمص شفتيها..تهمهم"شطبتك فسيلة عملت منه فاسية" .

بدأت الناس تتململ..الشيخ زهرى لا يكل ولا يمل التكرار والشمس تحرق الرؤوس همهمات الاحتجاج ترتفع نبرتها.."ماله الشيخ زهـرى بالع تسجيل" "فاكر لما يطُول حسناته تكتر" "الناس جات لهـا ضـربة شمس" "حد يقول له كفاية عليه كده ويكمل الجمعة الجاية" العمدة حبايب بيده مسبحة.. يغازلها بإصبعيه لاه تماماً عن الشيخ زهرى.. وقد راح فى تفكير عميق..صوت الشيخ زهرى مثل رجع ألصدى..هو منشـغل بقضيته..ثوب جديد يحاول تفصيله للعمدية.. جديد فى جديد..اسـتفاق وسيد أحمد يهزه هامساً :

الشيخ زهرى طّول والناس زمزأت .

إشارة واحدة من يده ..رآها الشيخ زهرى ..أنهى الخطبة .

بدأت الصلاة علـى قـدم وسـاق.. ركـوع وسـجود..وقـوف وجلوس..تمتمات وأدعيات كثيراً ما تشكك حبايب فـى مغـزى هـذه الطقوس وجدواها وهو يسأل نفسه المرة تلو الأخـرى وهـل ا فـى حاجة إلى تلك الحركات المتماثلة المعادة..فإذا كان المغـزى اختبـار طاعة المخلوق للخالق فلن يتم ذلك بتأديـة تمرينـات رياضـية ثنـى ..مد..جلوس..وقوف..بل الأجدى أن يتم إمتحان الطاعة من خلال تنفيذ تعاليم الأخلاق فأى طقوس للطاعة يجب أن تعود بالفائدة علـى الفـرد

والمجتمع والا فقدت مغزاها..هذه الشكوك كانت تنتابه كثيراً قبـل أن يتقلد منصب العمودية لكن عليه الآن أن يساند عقائد قومه بل يـدعمها بالقول والفعل فمن خلالها يستطيع ركوب الناس.. شى حا يا حمـارى حا..ويفرض سلطانه عليهم..فطاعة ولى الأمر من طاعة ا ..إنتهـت الصلاة.. مد حبايب يده..صافح الشيخ زهرى..همهم :

أحسنت يا مولانا .

إشادة روتينية تتم عقب كل صلاة..فقد كـان زهـرى فـى وادى والعمدة فى وادى أخر تماماً..أقلع بفكره إلى المستقبل..يتخيل ويرسـم ويتصور..كيف ينقل أهل قريته مـن العمـى والصـمم إلـى السـمع والبصر..كيف هذه باتت تؤرقه..تُسود عليه عيشته..فى الصحو تتزاحم الأفكار وفى النوم كوابيس.

(٥)

حوش وحوض وطلمبة و"عيوشـة" تـدفع يـد الطلمبـة للأمـام والخلف..ينساب من حلقها الضيق سرسوب ماء.. محزون يتلقى الماء براحتى يديه المضمومة يرش وجهه..يغسل يديه..وجهه..قدميه..يتمتم بأدعيات يهمس لعيوشة :

فى القاعة هدمتين خديهم فمين قبل ما تروحى!! .

يأخذ طريقه خارج البيت..نحو مسجد سيدى البرانى..الجدار لصق الجدار منذ دقائق أنهى الشيخ زهرى صلاة الجمعة ..جلس على دكـة الوعظ يحشو مخاخ الناس بغث الكلام..فور دخول "محزون" المسـجد أغرقه داخل نظراته..تابعه وهو يصلى..بعد نهو صلاته ناداه..تـردد محزون..لايمكن أن يكون زهرى طيب النوايا..خرج من تردده توجـه إليه..جلس أمامه..بادره قائلاً :

صلاة الجمعة ثوابها أضعاف أضعاف صلاة الفرد..لاتجعلها تفوتك أم أنك زاهد فى رضا ربنا.

ومن منا يا شيخ زهرى لا يسعى لرضاء ا   .

لماذا إذن لا تنتظم فى الصلاة معنا حتى لا يتهمك أحـد بضـعف الإيمان .

رد عليه محزون فى عصبية:

يا شيخ زهرى خليك فى حالك بلاش نكش .

إبتسم زهرى..رد فى سخرية :

نكش فراخ أم نكش كلام ؟!

المحاسب ربنا يا شيخ زهرى .

ليتك تفهم أن التخلى عن صلاة الجمعة تخلى عن الدين .

هتعمل فيها مفتى .

مفتى غصب عنك..كل هدفى صلاحك .

إنت ؟! .

نعم أنا..أنا كما أنا وأنت بتتغير .

بتغنى يا شيخ زهرى .

وألحن وأقول مواويل لكن من يسمعنى وأنت وغيرك غارقين فى الضلالة .

مواويلك لك ولمهاويسك.

سيأتى يوم تندم فيه على كل كلمة حيث لا ينفع الندم .

نهض محزون وقد أكتست ملامحه بالغضب..خرج لا يلوى على شئ .

(٦)

فى بهو دوار العمدة الواسع الأطراف بدأ حبايـب يدشـن سـفينة التجديد قرر أن يبدأ بالمظهر..البوية..الدهانات..الشكل..مرحلة تـأتى بعدها رحلة تسيير السفينة بمحرك جديد.."سفاية" و"قمحة" و "بعرور" و "ناصح" ينتظمون أمامه فى صف واحد بطرابيشهم الصـفراء الباهتـة المخططة من الأمام بخطوط سـوداء عريضـة..الأربعـة يكتمـون ضحكاتهم وهم يرون العمدة لأول مرة يرتدى بنطلـون جينـز وتـى شيرت..خلع الجلباب والعباءة وحلق الشارب لا يفهمونه رغـم أنهـم يريدون والعمدة يدور حولهم يغرقهم الواحد تلو الآخر داخـل نظراتـه بجلاليبهم الكلوش الزرقاء الباهته..يهز رأسه لأسفل وأعلـى يصـيح صيحته العميقة القوية :

هيه وبعدين .

إرتج الأربعة ..عبارة من كلمتين لكنها رغم قصرها تحمـل كـل معانى التحذير والوعيد قد ينتهى بهم الأمر إلى أربـع كـلاب ضـالة ممسـوخة..مثـل "حمـودى"هـذا الكلـب الـذى يلازمـه ليـل نهار..حمودى..شدوا القامات المتخاذلة..حاولوا طرد الخوف وقد هبت عليهم نسماته وهو يتمتم :

مكانكم متحف وأهل الكفر يتفرجوا عليكم .

ماذا يقصد..ماذا يعنى..هل هو تهديد مغلف بتحويلهم إلـى كـلاب ليصبحوا فرجة للكبير والصغير ؟!..أمسـك بهـم الخـوف..عضـهم

بأنيابه..إفترسهم بمخالبه..تناولتهم مشاعر الإحباط..ربما لأمر خطيـر إقترفوه لايدرون عنه شيئاً..تفجرت لديهم إرادة الدفاع عـن كينـونتهم بشر..تسارعت ألسنتهم فى صوت واحد :

ليه يا عمده إحنا غلطنا فى حاجة لا سمح ا ؟! .

تركهم لشوارد إستنتاجاتهم الغبية إلى الصالة العلوية..أخـذ مكانـه بجوار الشيخ زهرى.هو الآخر فى حيرة..لا يستطيع أن يصل لمغزى ما يحدث أمامه..إجتماع طـارئ يعقـده العمـدة مـع خفرائـه فـى حضوره..إنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان للموضوع أهمية قصوى..لكـن إلى أى مدى.. وكيف.. عجز عقله عن التوصل لأية نتائج..بدأ الغطاء ينكشف قليلاً عن الفحوى والعمدة يهمهم :

عاجبك المناظر دى يا شيخ زهرى ؟

هو لا يفهم..يريد أن يفهم أية مناظر يتحدث عنها..رغـم ذلـك رد قائلاً :

طبعاً لا .

نظر العمدة إلى صورته المعلقة فى صدر القاعـة وهـو يرتـدى الجلباب والجبة والطاقية وتحت أنفه شارب يقف عليه صـقر..زعـق مستنكراً :

إبعدوها من هنا .

حمل الشيخ زهرى الصورة برفق كأنه يحمل طفـلاً وليـداً إلـى الداخل..عاد محملاً بكم هائل من التساؤلات..ما هذا وما ذاك.. يحاول أن يربط بين الأحداث ليخرج بنتيجة..إرتداء العمدة للجينز والـ تـى

شيرت ..الخفراء الذين يرصهم أمامه حبات مسبحة.. صـورته التـى استنكف من وجودها..لكن بدأت الأمور تتضح معالمها وحبايب يلـتقط صرة ملابس يقذف بها إلى سفايه وأخرى لقمحة ثم لبعرور ثم لناصح وأخيراً لسناره شيخ الخفراء ..أفصح عـن مـراده بكلماتـه القاطعـة الحاسمة :

بعد ربع ساعة كل واحد فيكم يدينى تمام باللبس الجديـد وأول واحد يوصل له ملبسايه !!

اختفى الخمسة بسرعة البرق..يخلعون ملابسهم ويرتـدون الـزى الجديد العمدة يسأل الشيخ زهرى فى زهو:

ما رأيك فى هذا التحديث .

فى وقته ياعمده.. فى وقته .

قبل أن ينهى الشيخ زهرى عبارته..إقتحم ناصح المكان .. قـذف بالملابس صرخ محتداً :

دا لبس عيال مقصعة !! .

فى ضيق مكتوم معبأ بالغضب شد حبايب جلباب ناصح.. هزه فى عصبية ..دمدم :

رافض تقشر جلدك القديم وتغيره بجديد ياابن شلبية ..عايز تخـرج عن طوعى..غور من قدامى الساعة دى .

تقافز ناصح..لم يكن يجرى..بل يبتلع بقدميه الأرض ابتلاعاً.. كما لو كان له أربعة أرجل وقبل أن يتوارى طيفه..تدحرج بعرور فور أن

رأه العمدة ضحك..تمادى فى الضحك سايره الشيخ زهـرى وبعـرور يعظم بيده يتهدج صوته :

تماماً يا أفندم.. فين الملبساية .

العمدة يدور حول بعرور..سوستة البنطلون فى الخلف همهم العمدة بعد أن نامت ضحكاته :

البنطلون مقلوب ..إقلع وأعكس..ورا قدام وقدام ورا .

فى تلك اللحظة أقتحم سفايه وقمحة البهو انفتحت شهية العمدة فـى الضحك الموقف ساخراً لا يبعث فقط على الضحك بل التأمل..سـفايه السمين العريض الأرداف يرتدى بنطلون ضيق..أما قمحـة فقـد شـد البنطلون الواسع حتـى صـدره الضـحكات تتوقـف يحـل محلهـا وجوم..الكلمات يحفها الغضب :

شايف ..شايف يامولانا.. لو اللبس دا بردعة حمار كان لبسها صح ؟ .

(٧)

على مدار مئات السنين وفى كل الأزمنة والعصـور درج النـاس على أن يكون المأذون رجلاً..لم يكن أبداً إمرأة لكن حبايـب خـاض معركة قاسية حتى تم الترخيص "لسعاد" خريجة كلية الفنون الجميلـة لتصبح مأذوناً..كان هذا ضرباً من المستحيل فكيف لإمرأة أن تتقلد مثل هذا المنصب الذى إختص به الرجال دون غيرهم..رغـم أنـه عمـل روتينى بحت يعتمد فى المقام الأول على تسجيل بيانات ..قريب الشبه من عمل مأمور الشهر العقارى لكنه التعصب الأعمى ونظرة الذكورة للمرأة.. فهى ليست سوى بالوعة قذرة تنقذف إليها نفايات شهوة الرجل حتى بدون إرادتها..من خلال تلك النظرة تم مسح إنسـانيتها باسـتيكة الرجل من على خريطة البشرية بعد أن تحولت إلى موضـوع متعـة وهى تبذل كل قصارى جهدها لإمتاع الرجـل علـى كافـة الجهـات الأصلية قائمة أو واقفة أو راكعة!!نتيجة لهذا أصاب المجتمع مـرض النسيان المصحوب بالبلاهة أنها جزء من الكيـان الاجتمـاعى تعبيـر صادق لتمجيد التفرقة العنصرية وتقديسها فى فكر العرب الهمجى الذى رفع الرجل إلى أعلى ..مصاف الأنبياء وخسف بالمرأة للقـاع منزلـة العبيد..عندما إنتقص من قدرها وقدراتها وبالتالى وجد المبرر لسـلب حقوقها بتحويلها إلى أحد الأشياء للرجل عليها حق التـرك "الطـلاق" والإتلاف "الضرب" والاسـتغلال "العمـل فـى البيـت أو خارجـه"

والاستعمال "بقضاء وتر الرغبة" وما من سبب يدعوه لذلك سوى أنهـا إمرأة..ثم نهاجم كل مفكر يرفض تلك العنصرية!! .

ناضل "حبايب" من أجل تنصيب "سـعاد" مأذونـاً للقريـة..شـاف الأمرين ورغم أن أهل القرية وقعوا جميعاً على عريضة تنصـيبها إلا أن أغلبهم إنصرف عن التعامل معها فقط يلجأون اليهـا فـى أحـوال الطلاق..حتى أصبحت رمزاً للشؤم والتشاؤم .

أرسل العمدة فى طلبها على وجه السـرعة لعقـد زواج "فكيهـه" العبيطةعلى "برغوت"..بعد وصولها مباشرة أسرع سفايه إلى حجـرة الحجز..أطبق بيده الضخمة على طوق جلباب برغوت..دفعه أمامه فى قسوة إلى الصالة العلوية..فور رؤية العمدة له زعق فى حدة:

إترزى عندك .

إتجه إليه متحايلاً بالبنطلون الجينز..يضع فى كـل جيـب خلفـى أصبعين..وقف قبالة برغوت..متواجهاً معه..صرخ :

قوم فز .

وقف "برغوت"..ساقان متخاذلان..رجفة تسرى فى كل بدنه..واجهه العمدة..بسؤاله مشيراً إلى فكيهه :

فكيهه..عارفها !! .

ولا عمرى شفتها .

قالها برغوت دون أن ينظر اليها.. عقب العمدة معاتباً فى سخرية :

من غير ما تبص لها ؟! .

ما هى مرزيه جنبى .

فجأة همهمت فكيهه فى توسل :

والخيارة يا برغوت .

العمدة من جديد فى حدة ممزوجة بالغضب :

حبلت فكيهه يا برغوت ؟ .

أحبلها أزاى ياعمده وأنا لا شفتها ولا نظرتها إلا الساعة دى .

الشيخ زهرى صامت .. يرى ويتأمل دون أن يعلق .. ولأن إجابة برغوت مستعصية على فهم العمدة إستنجد بالشيخ زهرى صائحاً :

سامع..سامع برغوت الكاب !!

الشيخ زهرى يهدئ من روعه بكلماته :

صبرك با   يا عمده .

يحادث برغوت فى رقة ونعومة :

فى خرابة أو بيت مهجور أو غيط قطن .

فى تلك اللحظة هبت فكيهه فزعة بكلماتها :

غيط قطن ياعمده .

رد برغوت فى تلقائية وحسم :

غيط قطن ايه ياهبلة..هو فيه كاب يبص لك .

الشيخ زهرى يعقب قائلاً :

كاذب يا برغوت .. جهنم مثواك وبئس المصير.

سكت ثم استطرد قائلاً للعمده :

هو لك ياعمدة .

أصدر الشيخ زهرى حكمه القاطع بتلك العبارة الأخيرة.."هو لـك ياعمده" بعد أن أفتى بكذبه..هو يتملق السلطة ليطلق يدها فى خلـق ا تفعل بهم ما تشاء..تخوزقهم..

جايز..تصلبهم..ممكن..تسجنهم..وارد..كل أنـواع العقـاب باسـم الدين..انتفخت أوداج العمدة..لقد سلم الشيخ زهرى برغـوت لسـلطته المطلقة..دمدم قائلاً:

تعمل عملتك يا برغوت وتفهمها أنها خياره..تزوجها على سنة ا ورسوله وإلا .

توقف قليلاً .. بدأ يلوح بالعصا لبرغوت الـذى تغـابى بكلمـات وقحة :

عملة إية ياعمده هى تلاقيح جتت ؟! .

يابن الكلب ..دى غرامتها كبيرة..أقله عشر سنين من عمرك .

أبقى مظلوم وتجوزونى هبلة .

هى الخيارة بتحبل يا برغوت..ضحكت عليها وقلت لها خيارة .

لو حدفتونى فى فرن لا يمكن أتجوزها .

ولا فرن ولا كانون .

سكت عاد مستطرداً السفايه :

شوف شغلك يا سنايه .

وشغلك هذه تبلورت فى سنايه وهو يسرع تجاه حجرة الحجـز ثـم وهو يعود ماسكاً بيده فلكه..علق عليها قدمى برغوت..العمـدة ينهـال عليه بعصا خيرزان وهو يزعق :

ها فعصك يا برغوت..هافعصك يا برغوت .

لهث العمدة ..تعب..وهنت يداه..توقف..سلم العصا لسفايه همهم من خلال لهثاته المتقطعة:

وراه لغاية ما يقر .

ضربات سفايه لبرغوت موجعة..لم يسـلم مـن قسـوتها سـاقيه وإليته..لحظات صمود قليلة صرخ بعدها ملبياً :

أتجوزها..أتجوزها ياعمده .

العمدة يتمتم لسعاد فى غبطة :

جهزى دفاترك وأنا والشيخ زهرى شهود فى العقد .

(٨)

تقليدة مقدسة تتم طقوسها أثناء مرور أحد الفلاحين راكبـاً حمـاره بالعمدة..على الفور يترجل ثم يلقى التحية ويعاود مسيرته.واحـد فقـط تمرد على هذه التقليدة "محزون" لم يكن مثل هذا الأمر يشغل بال العمدة لكن الشيخ زهرى حرض فيه السلطة التى فقـدت هيبتهـا ومحـزون يرفض تقديم فروض الطاعة بالترجل عن حماره كلما مـر بالعمـدة . أثناء عودته من الحقل كان فى انتظاره سفايه وبعـرور..اقتـاداه هـو وحماره إلى الدوار..العمدة يستقبله متسائلاً :

مين دا يا بعرور ؟!

المتهم يا سعادة العمدة .

وعايز إيه ؟

بعرور يفز محزون يسأله :

إنت عايز إيه ؟

سفايه هو الآخر يغزه يسأله :

رد يا بهيمه !!

لم يكترث محزون بتلك الأسئلة العبيطة ولا التصرفات الصـبيانية والعمدة يسأل فى سخرية:

هو أخرس ؟!

سفايه من جديد يغزه بقسوة يسأله :

إنت أخرس ؟

وبعرور يسخر هو الآخر قائلاً :

وللا يمكن أعمى .

فى تلك اللحظة رد محزون فى تعالى :

ياريت كنت أخرس وأعمى لا أشوفكم ولأسمعكم.

سفايه وبعرور فى ذهول لهذه الجرأة الغريبة..أعلـن كـل منهمـا احتجاجه على التوالى :

يوه..يوه..حد يقول للعمدة الكلام الماسخ دا .

إنت زودتها خالص..صحيح رقاص ابن رقاصة .

فى تلك اللحظة صعد الدم لرأس حبايب..زعق :

هاتوا الفلكه..لازم يتأدب .

محزون يفاجأ سفايه بضربة قوية على رأسه أفقدته الوعى..أمسـك ببعرور طرحه أرضاً..بعرور يدندن فى الصفارة..أتى الخفراء من كل فج عميق . احتدمت المعركة بينهم وبين محزون..أمسك بأريكه رفعها لأعلى قذفهم بها..فى نفس اللحظة التى اختبأ فيها الشيخ زهرى تحـت مكتب العمدة يرتل الأدعيات..يهمهم :

عليك به ياعمدة .. إمسخه لكاب .

هو وقته .

المعركة غير متكافئة بين محزون وخمسة خفراء لكن بعد مـرور دقائق رجحت كفة محزون وهو يوقع بهم الواحد تلو الآخر فى مواجهة شرسة..سفايه ينسحب وهو يتمتم :

بدل ما كان يلبسنا بنطلونات كان يعلمنا الكاراتيه .

وقع من وقع وهرب من هرب لم يتبقى فى الساحة سوى محـزون والعمدة والشيخ زهرى ..محزون يتجه للعمدة مزمجراً فيقابله مستسلماً برفع ذراعيه إلى أعلى أما الشيخ زهرى المختبئ تحت المكتب فقد أخذ يردد أدعياته وكلماته :

إمسخه..إمسخه ياعمدة لقرد وللا بهيمة .

(٩)

شاع فى القرية كلها أخبار المعركة وانتصار محزون على الخفراء وانتقلت الأخبار عبر الهواتف البشرية من بيت لآخر من حـارة إلـى درب..العذارى ينظرن إلى محزون فى إعجاب تتوق كل واحدة مـنهم لنظرة منه.. للمسة يقشعر معها بدنها فإذا كان هذا حاله مـع الخفـراء فكيف هو فى الفراش..أكيد سيهزم وحش الكبت والحرمـان وسيشـفى الأمراض المستعصية الناجمة عنهما..فكل عذراء فى القرية بلا إستثناء تنتظر فى شغف تلك الليلة التى يحمحم فيها طائر النورس حول جسدها العذرى ينقر منـه الـدمامل التـى كونهـا بمـرور الأيـام الكبـت والحرمان..بهيمة تتلذذ من تطهير جرحها المتقيح بمنقار غراب..هـذا هو حال فتيات القرية الذى لم يمسهم إنس ولا جان..أما الزوجات فقـد إنقلبن على الرجال..يريدن منهم محزوناً آخر فى الفراش..يقهر فـيهم عذاب الحرمان وتبلد الأحاسيس .

(١٠)

الإستعداد للإحتفال بتخريج أول دفعة من المدرسة الإعدادية علـى قدم وساق..ملابس جديدة يخلعها التلاميذ فور انتهـاء الحفـل للعـام القادم.سرادق يضم الكبار المحافظ "ماهر بندق" ومديرالأمن والمـأمور وأعضاء مجلسى الشعب والشورى..رمل أصفر فرشت بـه أرضـية الحوش..زينات ولافتات وأعلام وصور المحافظ يزدان بهـا مـدخل الكفر.قبل الإحتفال بأيام ألقى الشيخ زهرى خطبة عصماء فى المسـجد بعد صلاة الجمعة طلب فيها من الناس المشاركة فى الإحتفال المهيـب ففى إنتظارهم مفاجأة تسر القلب .

أتى الناس من كل فج عميق..لم يتخلف أحد "خلق كثير" أسـر بكاملها ترغب فى الإستمتاع بتلك المفاجأة ظنت إن تحت القبـة شـيخ إبتهج العمدة والزحام على أشده "الناس بيضت وشـه " ولكـن خـف الزحام بعد ان إكتشف الناس أن المفاجأة ملبساية يحصلون عليها عنـد مرورهم من بوابة الحوش ولاشئ غيرها !! .

بدأت فصول الحفل تتوالى تصاحبها موسيقى حسب ا ..عـرض لمسرحية المكفوفين قدم فكرتها العمدة وأخرجها ولحنها وكتبها مدرس الموسيقى . تدور حول ثلاثة مكفوفين قرروا الوصول للقمر بطريـق الوتد والحبل.. يرشقون الوتد فى القمر ويصعدون على الحبل !! الناس دائماً تضحك على الهايفة.تلا المسرحية عرض للمتفوقين وهم يتسلمون الجوائز.. سحبت منهم فور إنتهاء الحفل للعام القادم.مصـحف كـريم

قدمه العمدة للمحافظ تحت المصحف جنيه ذهب تلألأ أمام عين المحافظ فدسه فى جيبه..بعدها بدأ العمدة فى قراءة خطبة كتبها الشيخ زهـرى خصيصاً بهذه المناسبة بالعربية الفصحى كلماتها صعبة معرقبة نحاهـا العمدة جانباً وبدأ حديثاً من بنات قريحته من القلب إلى القلب عـرض فيها منهجه للتحديث جديد×جديد ملابس ألافرنكا..بنطلون جينز بـديلاً عن الجلباب الكلوش قبعة مكان الطاقيـة فالجلبـاب يعـوق الحركـة والطاقية لاتقى الرأس من حرارة الشمس ولا مطر الشـتاء..الشـوكة والملعقة والسكين بديلاً عن الأصابع .. أحد الأهالى يعلق قائلاً :

مش لما يبقى فيه أكل .

أشاع البهجة فى النفوس أغنيـة ألفهـا نـاظر المدرسـة شـفيق الحلوجى :

عمدتنا جديد فى جديد

عهده سعيد فى سعيد

نظامه مجيد فى مجيد

ياما وياما قدم الخـير

بلسـ ـ ـ ـانه وبالإيد

أدعوله بعـمر مديـد

بيشقى عشان يومنا

يبقى سعيد .. يوم عيد

عمدتنا حارب فى القنال غيلان

قتل منهم معيز وخرفان

ورجع بخيبه حولها لنيشان

هو أبونا وأمنا فضله علينا كلنا

من غيره لاصرنا ولا رحنا ولاجينا ولا كنا

هو دنيتنا وآخرتنا .. ريسنا وعمدتنا

فى تلك اللحظة يردد الكورس .. الناظر والمدرسون والتلاميذ :

ربنا يخليه ويطرح البركة فيه .

ويحاب من البقرة كل اللى يكفى ولاده ويكفيه

وربنا يعطينا عشان يسرقنا ونعطيه

بعد هذا الفصل الأسطورى من الإحتفال إنتقل الموكـب لمستشـفى "زبيبة" الشعبى والتى ساهم فى إنشائها تبرعات أهل الخير..المحـافظ يسأل العمدة فور أن رأى اليافطة :

ليه إسم زبيبة ومش بلحة ولا تيناية ؟!

رد عليه العمدة فى ثقة :

حتى يقبل الأهالى على التبرع فالزبيبة زينة الجبهة وعلامة التقوى والإيمان والخير .

بدأت مراسم الإحتفال بقص شريط الإفتتاح البرتقالى واكبه تصفيق حاد من الجمهور..بعدها تحرك الموكـب للمـرور علـى حجـرات المرضى.المحافظ فى المقدمة بصحبته العمدة و"عِكْوه " مدير المستشفى خلفهم أعضاء مجلس الشعب والشورى ومدير الأمن..المحافظ يسـأل أحد المرضى أثناء جولته :

بقالك هنا كتير ؟

من صباحية ربنا .

بكام ؟!

خمسه جنيه عمى .

شاملة الأكل ؟

ولا شفنا لقمة .

دهش المحافظ للإجابة الغريبة "من صباحية ربنا " صاغ دهشته فى سؤال للدكتور " عِكْوه "

كل العيانين ماركة صباحية ربنا .

رد عليه عِكْوه قائلاً :

الوقت كان ضيق..العمدة بلغنى بخبر زيارة سيادتكم من أسـبوع وعشان نجهز كنا محتاجين أقله ستة شـهور..عشـان كـده إسـتلفنا المعدات .

فى تلك اللحظة غزه العمدة فى قسوة." عِكْـوه " كـاد أن يعتـرف المعدات قديمة متهالكة إسـتعارها مـن أحـد مخـازن المستشـفيات والمرضى قام بتأجيرهم الراس بخمسة جنيهات ..!! بعد غزة العمدة . إستطرد " عِكْوه " قائلاً :

قصدى إستلمنا المعدات من الجمارك من يومين بس!!

إنتقل المحافظ بعدها لقسم الإستقبال..اعداد مهولة من المرضى سأل فى دهشة :

كل هذا من ماذا ؟

رد عليه حبايب متباهياً :

ضحايا الدفراوى المأمور .

وقبل إنتهاء الجولة دخل المحافظ قسم الولادة أدهشه وجود مريض بالقسم عبر عن دهشته بسؤاله ؟

مريض فى قسم الولادة .. يا للهول ؟!

رد عليه " عِكْوه " قائلاً :

عنده عقم وفيه شك إنه حامل .

هب الرجل فزعاً صارخاً .

حامل من مين با دكتور..من مراتى سعدية ؟

الدكتور عِكْوه يهمهم للتومرجى :

حقنة مورفين تهديه .

بعد تمام تلك الزيارة أثنى المحافظ ومرافقيه علـى العمـدة ثنـاءاً عظيماً .. ومضى موكب المحافظ مغادراً القرية فى سلامة ا تحفـه الدعوات الطيبات أن يطيل ا فى أعمار المسئولين أن أشاعوا الأمـل فى النفوس بمزيد من وعود المشاريع الوهميـة.. رصـف الطريـق المؤدى إلى كفر نواية وإنشاء كوبرى على العباسى..وتمنى الناس لهم كل الأمنيات الطيبة فلا يشرف أحدهم سجن ولا يحكم عليه فى جريمة رشوة .

(١١)

بعد هذا النجاح الساحق الذى حققه حبايب فى علاقته بالسـلطة .. قرر فى إجتماع ضم مشايخ القرية " اللّى " و "سـنقر " و" زغبـى و " ودنى " ترتيب البيت من الداخل وإعادة ما إنسكب من ماء الوجه بعـد معركة محزون مع الخفراء وتتويجه منقذاً للقرية من ظلم العمدة وحتى لا تتساقط الأمور من يد العمدة ويصبح أعوإنه هفية لكـل مـن هـب ودب..كان لابد من خطوة يتم خلالها تحجيم هذا العمـلاق المحزونـى وحبسه فى مصباح حبايب وإستعادة التوازن بعد تلك الخلخلـة التـى أحدثها محزون فى منظومة كفر المساعيد خاصـة بعـد أن تطـاول "شراقة" العبيط بالأمس على سفإيه وسبه ووصفه بحمار العمدة ..لذلك إتفق الجميع على ضرورة محاربة محزون فى البر والبحر والجو دون إرجاء !! إرتحلت المجموعة كلها يصحبها الشيخ زهـرى إلـى بيـت محزون.فركة كعب فما يفصله عن دوار العمدة جدار..هذا البيت ظـل لسنوات طويلة حلم العمدة..يضمه إلـى أملاكـه لكـن فشـلت كـل المساومات وبقى البيت صامداً يشهد على تصميم محزون وقوة إرادته فى دهشة مفعمة بالحيرة والتساؤلات استقبلهم محزون "عدد وفير" لإيهم العدد فى الليمون لكن تلك الوجوه الجادة الملامح أوحت له بأن الأمـر خطير..لم يفارقه هذا الإحساس وأجسادهم تتراص فى الصالون وهـو يقدم لهم الشاى.. وهو يجلس قبالتهم ينتظر ميلاد هذا الأمر من رحـم

المجهول إلا أن الشيخ زهرى أشار إلى إحدى الصور المعلقة وعقـب قائلاً :

صور خليعة .

رد عليه محزون بلا إكتراث :

سلامة الشوف يا مولانا دى صورة أمى .

لهذا فهى خليعة أو لم تكن راقصة تهز الأرداف وتدق الصاجات .

ليه بس الغلط يا شيخ زهرى .

سكت محزون..كتم غيظه ..عاد مستطرداً :

عموماً إنت فى بيتى ولك إحترامك .

بيت الشياطين يا محزون .

ولما هو بيت الشياطين دخلته ليه ؟

حتى نطهره من الرجس .

وبعدين بقى فى طولة اللسان دى .

وحتى لاينفجر الموقف بين الشيخ زهرى ومحزون ويخـرج مـن حيز العقل إلى دائرة الغضب..صب العمدة على النار المتأججة قطرات كلمات هادئه رصينة :

لازم تعرف يا محزون إننا بنكن لك ولأسرتك كل تقدير واحتـرام لكن إسمعنى كويس .

مطرطأ ودانى يا عمدة .

لو الواحد قدامه مايه وهوعطشان .

دا سؤال يا عمدة .

جاوب .

على حسب..المايه اليومين دول لها ثمن بيسعره الوزير .

قلتها وإحنا على إستعداد ندفع الثمن .

أفهم عشان أنا مخى على قدى !!

فى تلك اللحظة أمسك الشيخ زهرى بطرف الحديث قائلاً :

إنت أدرى بمعاناة الناس وهى تؤدى فرائض ربنا يوم الجمعة قدام بيتك.الشمس تلفحهم والمطر يرخ على أدمغتهم .

والمطلوب ؟! .

رد العمدة فى إقتضاب :

نخفف عنهم !!

خفف زى ما انت عايز .. دخلى أنا إيه ؟!

حانت لحظة مساندة المشايخ .. تصدى سنقر للرد مستنكراً :

إلا دخلك إيه .. دا إنت الكل فى الكل !!

إزاى ؟

قالها محزون مدهوشاً .

"مدنى" يستكمل ما إنقطع من حديث "سنقر" معقباً :

كلمة منك تحل المشكلة من جدورها .. موافق .

محزون من جديد متداخلاً فى الحديث :

موافق على إيه ؟!

زغبى هو الآخر قرر أن يكون له دور فى المناقشة..تداخل قائلاً :

بيتك سكن الشياطين .

سكن الشياطين واللا العفاريت الزرق .. دخاك إنت إيه ؟!

عندما تتوتر الأنفس ويخرج النقاش عن طريقه المرسوم يأتى دور السلطة لضبط الإيقاع .. حسم " حبايب" القضية الغامضة فى كلمـات قليلة :

الناس يا محزون طالبه بيتك على سبيل الإعارة .

رد محزون متهكماً :

إذا كانت الإعارة للإمارات أنا موافق .

فى تلك اللحظة هب زغبى زاعقاً :

إنت بتتمقلت .

محزون يستطرد دون أن يعير زغبى إهتماماً :

والإعارة دى سعرها كبير ؟! .

العمدة بسخرية :

لاتقدر بمال !!

الشيخ زهرى يعقب قائلاً :

على الجنة حدف .

" اللّى " هو الآخر يطرق الحديد وهو ساخن :

شوف بقى ثوابك عند ربنا لما الجامع يوسع والناس تصلى فيه بدل رميتها فى الشارع

"سنقر" يستكمل حديث "اللّى" وهو يشير للحصيرة المفروشـة فـى الحجرة :

ويتضاعف لو اتبرعت للجامع بالحصيرة .

الشيخ زهرى يهدد بكلماته المستفزة :

وأول ما نهد الحيطة التى تفصل بين بيت الشياطين وبيت الملائكـة ربنا يمسح كل ذنوبك القديمة والجديدة والمستجدة .

فى تلك اللحظة إنفجر محزون قائلاً :

إتهدت على دماغك .

سامع يا حضرة العمدة قلة الأدب .

رد العمدة فى برود :

نتحمله لغاية ما نعرف آخره .

وليه مش بيتك يا عمدة .

الشيخ الزهرى يتصدى للإجابة قائلاً :

لأن بيتك تسكنه الشياطين وبالعبادة يتطهر!!

وأنا عاجبنى بشياطينه .. دخلك إيه إنت وهو .

رد اللّى ساخراً :

والجنة نسيتها .. هتدخلها من أوسع أبوابها .

رد محزون فى سخرية :

ربنا لايقبل الرشوة .

رد الشيخ زهرى فى حدة :

بتتهكم على عقائدنا يا مخرف .

يا مولانا بيتى وأنا حر فيه .

محاولاً تهدئه الأمور العمدة يهمهم :

بالهداوة يا شيخ زهرى .. بالهداوة .

يحل الصمت لفترة وجيزة يرتشف العمدة خلالها رشفة شاى يتمـتم بعدها :

إسمع يا محزون إيه رأيك لو أجرنا منك البيـت لربنـا سـبحانه وتعالى .

فى تلك اللحظة هب الشيخ زهرى مدمدماً :

حرام يا عمدة .. حرام بيوت ا لاتؤجر .

فاض الكيل بالعمدة .. زعق محذراً الشيخ زهرى :

حرمت عليك عيشتك .. إنت تسكت خالص .. قلت إيه يا محزون !

قلت لا إله إلا ا .

يعنى موافق .

موافق على إيه .. كلام لايتسمع ولايتعقل .

" زغبى " يشد برحال كلماته إلى محزون :

دا إنت سكتك واعرة قوى .

يا أخى بيتى .. تمام زى الهدمة .. تقدر تستغنى عن هدمتك .

والناس تصلى فين .

دخلى أنا إيه .. تصلى وللا ما تصليش .. أنا مالى .

بتكفر بربنا .

إنت يازغبى .. من إمتى بتركعها .

العمدة يحاول كبح جماح الأحاديث بكلماته الهادئة الرصينة :

إيه رأيك لو أخدناه منك شروة .. إنت تبيع وإحنا نشترى برضه سبحانه وتعالى .

إنتم مين يا عمدة .

سنقر يتصاعد من مدخنته دخاناً أسوداً :

إنت عبيط ولا بتستعبط يا وله .

ماهو أنا لازم أعرف المشترى .

مالك إنت بالمشترى .. هو أكل وللاّ بحلقة .

خلاص بانت ملامحها .

ملامح إيه يا أبو ملامح .

قاطعه محزون قائلاً :

نفس العرض اللى رفضه أبوى لكن من سكة ثانية .. سكة لافيهـا نقض ولا إبرام .. لأ ياعمدة .

لأه تلقّك .. إنت عارف آخرتها .

رد محزون فى غضب جامح :

بيع لا .

رد الشيخ زهرى مهدداً :

عنك ما بعت .. لقد أعذر من أنذر .. ذنبك على جنبك .

إتفاق ضمنى على أن يكمل كل منهما الآخر والعمدة يسـتكمل مـا بدأه قائلاً :

ننسى البيع .. خليها بدل..إيه رأيك فى بيت الجرن الشرقى.. بيـت يشرح القلب..أربع غرف وزريبة وعفشة مايه .

لو جنة عدن يا عمدة .

نهض العمدة غاضبأ .. معه حاشيته وقبل أن ينصرف ألقى بكلماته الجادة :

عموماً فكر .. قدامك مهلة أسبوع .. الجمعة الجاية صلاتنا هنا إن شاء ا وكده يبقى عملنا اللى علينا .

(١٢)

مرت الأيام . لم تلن إرادة محزون..لم يأبه لتهديدات العمدة..ظنهـا تهديدات فارغة مثل طلقة فشنك .. إلى أن حط عليه طير أبابيل سفإيه وقمحة ومعهم" اللّى " شيخ الخفراء إستقبلهم فى فظاظة :

خير يا لى .

العمدة طالبك .. كلمتين على الماشى .

سفإيه يجذبه فى قسوة .

معانا يا محزون

محزون يدفعه .. الثلاثـة يحوطونـه..يـتخاص مـنهم..يـدفعهم للخارج..لم تكن هذه هى النهاية..إنتظروه أمام بيتـه..فـور خروجـه قبضوا عليه..أودعوه الحجز .

فى الصباح تم ترحيله إلى المركز فوق ظهره جوال أذرة .. وكمـا هى عادة السلطة عندما تتواجه بمن يتمرد على مشيئتها تستبيح لنفسها كل عمل غير مشروع بدءاً بتلفيق التهم وإنتهاء بالتصفية وهى عندما تفعل ذلك فلأن شبكية عينها قد أختلت وفقدت الرؤيا السليمة.. كل مـا آتاه محزون من ذنب إنه رفض بيع بيته وهذا من صميم حقه لكنه فى نظر السلطة تمرد وعصيان ولأن التهمة جاهزة فقد تم القـبض عليـه ليبدأ فاصل سخيف من المحاكمة الهزلية يتوحد خلالها العدل الجـريح مع السلطة بأوامر عليا والمحصلة إدانة حق الإنسان المشـروع فـى

الدفاع عن نفسه من تجاوزات السلطة فتتحول أرض الأحلام إلى فخاخ ويجبر الإنسان على إعتزال أولوياته..أقصى درجات الظلم .

لم يصدق أحد من أهالى القرية سرقة محـزون لجـوال أذرة مـن أرض العمدة محزون عفيف النفس..يملك الطين والمال..لكن هذه هـى السلطة وهذا هو أسلوبها..تحول الشريف إلى مجرم عاتى بعد أن تضع على صدره نياشين الإتهام!! نعم نياشين عندما يكون المتهم مظلوماً.

لأول مرة يدخل محزون المركز متهماً..لأول مرة يرى المـأمور "أسامه الدفراوى" عن قرب خاف مكتبه يجلس فاتحاً زرايـر جاكتتـه الصفراء..العرق يتصبب منه..بين كل آونة وأخـرى يتشـمم رائحـة أبطه..ربما ليتأكد إنه لم يستحم منذ أسبوع..فور أن رأى محزون برفقة سفإيه وقمحه يقبضان علي ذراعيه طلب منهما الإبتعاد عنه..نهض من جلسته..إتجه إلى محزون..إنخلعت من أحزإنه إبتسامة إنفرجت عـن ضحكة وهو يرى الدفراوى "بالكلسوم"بدون بنطلون..إحتوتـه الدهشـة لفتره وجيزة والمأمور يهمهم مستنكراً :

بتضحك على خيبتك !! .

يعود إلى مكإنه يرتدى البنطلون يجلس خاف مكتبه وهو يهوى على وجهه بورقة كرتون يستطرد بعدها قائلاً :

إيه حكايتك .. حرامى وبتقاوم السلطات .. عامل فيها فتوة .

سفإيه يعقب قائلاً :

وقمع يا سيادة الحكمدار .

إنتفخت أوداج المأمور بتلك الكلمة الأخيرة .. همهم :

وقمع .. بقم ثلاثة تهم حرامى و فتوة وقمع .

قمحه يركب الموجه قائلاً :

شفته يا سيادة الحكمدار وهوبيضحك .. بيتمهزأ بسيادتك!!

كده أربع تهم .. أشغال شاقة .

رد محزون فى إحباط :

كل دا عشان رفضت أبيع بيتى للعمدة !!

رفض غير مبرر .. بيت للملايكة وللا بيت للشياطين .

سيادتك مش فاهم .. الجامع كوبرى عشان العمدة يعديه ويستولى على البيت لنفسه .

أفهم من كده إنه لو اتحول لجامع توافق وتبقى كده المشكلة إتحلت.

فتح الدفراوى درج مكتبه .. إلتقط ورقة .. قذف بقلم على سطح المكتب إستطرد قائلاً :

اكتب تنازل ويادار ما دخلك شر .

تنازل عن ماذا ياهذا ؟!

عن البيت ياوردة من غير فازه!!

ولا عن طوبه .

الطوبه تمسح بيها إليتك .. كفاياك .

للصبح معاك .

الحجز يهواك .

صاح الدفراوى بصوته المجلل بالغضب ينادى "فيتراك" .. فيتراك هذا عسكرى المأمور الخصوصى إسمه الحقيقى شرحبيل .. أصيب

اثناء خدمته أمام باب المأمور بغيبوبه سكر وتم إسعافه بتناوله ملعقـة مربى .. منذ هذا اليوم أطلق عليه إسم فيتراك .. دائما يصاحبه حتـى فى أوقات الحظ عندما يـدعوه صـديقه "أبوصـيرى " علـى قعـدة خصوصى .. فيتراك خبير فى رص الجوزة والمعسل .. ساعتها يغلق أبوصيرى المحل ويصحب المأمور وكلبه الأليف للمخزن..هناك تـرى العين ما ترى واحد من قصور ألف ليلـة وليلـة بالأثـاث المطـنفس والنجف الكريستال والقعدة الملوكى واللحم الأبيض .

تأخر فيتراك عن تلبيه نداء سيده .. إنقذف الدفراوى خارج الحجرة .. رآه واقفاً يساوم محامى زعق :

إنت يا زفت يا شرحبيل .

دائماً يزعق .. هو لايعرف لمذا يزعق .. كل من حوله يجهلـون السبب وراء زعيقه المتواصل إستطرد قائلاً وهو يشير على محـزون بيده المتوترة :

دخل صاحبنا الحجز والصبح تعرضه على النيابة بتهمـة السـرقة ومقاومة السلطات .

فى الليل البهيم من "بهيمة" محزون مقرفصاً فى حجرة الحجز مـع المجرمين وسفلة القوم باسم السلطة لايدرى مصيره وسؤال يدهسـه .. ماذا باستطاعته أن يفعل أمام عصا السلطة الغليظة التـى يلـوح بهـا زبانية جهنم العمدة والمأمور أبداً لن يلين أو يستسلم وفى اللحظة التـى كان محزون يفكر فى خطوته القادمة بعد خروجه مـن الحجـز.كـان رجال العمدة "سنقر" و"الزغبى" و"اللّى" بصـحبتهم بعـض الفلاحـين يهدمون الحائط الذى يفصل بين بيت محزون والجامع ينزعون البـاب

الخارجى يبنون بدلاً منه جداراً.. يغيرون من هيكل البيـت..وقبـل أن ينبلج الصباح كانت الصورة كما يلى..بيت محزون إندمج تمامـاً فـى جسد الجامع بات الإثنان مبنى واحداً..فرشت فيـه الحصـر وعلقـت الثريات..ما تبقى منه سوى الجدران..جامدة..صامدة لكنها شاهدة على كل ما حدث من إغتصاب .

(١٣)

فى الصباح تم عرض محزون على النيابة بتهمة السرقة ومقاومـة السلطات وإحداث إصابات بالخفراء لم يفكر "ياسر" وكيل النيابة كثيـراً وهو يؤشر أربعة أيام على ذمة التحقيق خلال هذه الأيام الأربعة صلى الناس الجمعة فى المسجد المعدل بعد توسيعه..لأول مرة منذ عشـرين عاماً يودعون صلاة الشارع .. لم يفكر واحد منهم فى إنه يصلى داخل جدران مكان مغتصب..لكن هذا هو الدين مغفـرة وتسـامح!! تجـار المخدرات يحجون ويقبل ا توبتهم عما ألحقوه من دمار لآلاف البشر .. ويقيمون مساجد يصلى فيها المئات وتذكر فيها كلمة ا .. لاشـئ يهم .. فما يهم هو إقامة الشعائر وما دون ذلك فا غفور رحيم !!

بعد مرور الأيام الأربعة أفرج عن محزون بكفالة .. عاد إلى قريته .. أثناء نزوله من القطار بصحبته صديقيه "زهران" و " زقلمه" إلتقـى بالزغبى .. عند رؤيته لمحزون أخذته كريزة الضحك .. الضـحكات عميقة .. فور سكونها .. ردد كلمات على ضفافها كثير من السخرية :

كل حبسة وإنت طيب يا محزون ..

لم يكترث محزون إلا أن الزغبى إستطرد قائلاً :

رايح على فين .. ما خلاص .

رد عليه محزون فى ريبة :

ما خلاص إيه يا زغبى ؟

الزغبى يشير إلى السماء مهمهماً :

الحق رجع لصحابه .

محزون كان يستشعر الخطر .. لكنه لم يكـن يتخيـل أن يصـل الغصب إلى هذا المدى من الفُجر .. بيت بأكمله يتم إغتصـابه عينـى عينك بلا خجل أو مواربة كيف حدث هذا .. أى فوضى هذه .. أيـن القانون ؟! ماذا حدث للعدالة .. هل أصبحت شـلبلة عـاجزة بعـد أن أصابتها جلطة فى المخ ؟! وقف للحظات أمام بيتـه بعـد أن تغيـرت ملامحه .. دخل الجامع يرى ماذا حدث له مـن الـداخل .. تحولـت فراغاته الضيقة المحددة بأربعة جدران إلى فراغ أوحد واسع. إفتراء.. ظلم ..قلة حيلة .. جلس محزون فى صحن البيت لا ليشتكى ظلـم البشر له بل يلومه على ما حدث له .. لماذا تركت الأوغـاد يدوسـون حرمة بيتى؟! لماذا ينتصر الظلم وأنت موجود ولاتمنعه؟! فهل أنت حقاً موجود أم كلام كتب ؟! أذن المؤذن للصلاة .. نهض محزون مخترقـاً الجمع إلى الخارج صارخاً .

لازمتها إيه ..

(١٤)

محزون أمام "الدفراوى" .. فى جعبته كلام كثير لايستطيع الإفصاح عنه .. لكنه صـامد متماسك رغم أن ما حدث لايحدث فى عالم القردة .. إنهم يقدسون الحرية الشخصية أكثر ربما لو حكمنا قرد منهم كـان أفضل بكثير من حكامنا .. فمن المحتمل أن يعلمنا نحن البشر أخلاقيات القردة التى باتت أسمى من أخلاقياتنا "الدفراوى" يغرق محزون داخـل نظراته من أعلى لأسفل .. تستكمل مخيلته رسم صورة الشاب الأخرق المشاغب الذى يرفض نداءات السلام .. أو بمعناها الحقيقـى نـداءات الإستسلام وهو يواجهه بقولته :

إنت دماغك ناشفه ليه ؟

لأنى بطالب بحقى !!

وجع حقك بيتك تحول لجامع .

غصب .. إغتصاب .. ظلم .

طلباتك ؟

لو إنت فى موقفى تعمل إيه ؟! .

تفكر المأمور قليلاً .. حقيقة لن يتنازل عن حقه .. لكـن الموقـف يستدعى منه أن يكذب كم من المرات كذب .. عشرات بـل مئـات .. آخرها عندما طلب منه مدير الأمن تنفيذ القانون وهدم مزرعة أقيمـت على أرض زراعية "نفذنا ياأفندم " والحقيقة أن ما أزيل لم يكن سـوى جدار أعيد بناءه فى اليوم التالى..وهو يعتقد أن الأكاذيب ستوصله إلى

بر الأمـان لـذلك ولإنـه متمـرس أجـاب فـى صـوت لايخفـى النفاق..متردد..ذبذباته هادئه ناعمة الملمس :

ثواب ربنا أهم من أى مال .

ربنا يعاقبنى لو تنازلت عن بوصة واحدة من حقى .

يعاقبك لأنك قدمت له هديه ؟! .

هدية بالغصب..بالقوة..بالقهر مستحيل .

حاسب أحسن يطق لك عرق..ترفض شرف الجنة إنت حـر لكـن نسيت إن بيتك بقى جامع..ملك ربنا..من حقه .

ربنا عمره ما يطهر الحرام .. والحق مسيره يبان .

صرخ أسامه فى حده :

تانى .. حقك تانى.. الحق إنك تستولى على جامع يا غبى .

يا بيه الجامع دا كان بيتى قبل ما يغتصبوه منى .

كان فعل ماضى .. لكن موقفه إيه النهـارده .. السـاعة دى..؟! جامع الناس بتصلى فيه .

لإيهمنى ولايشغلنى إذا كان جامع وللا كنيسة .

وآخرتها عايز تشترى الدنيا الفانية بالآخرة الباقية .

خليها لك الآخره إغرق فيها .. كل اللى أنا عايزه بيتى يرجع لى .

قصر نظر وكلام ملاحيد .

يا دفراوى بك دا ملعوب العمدة والشيخ زهرى .

تقصد حزازات قديمة .

زمان قبل ما يموت المرحوم أبوى .. ياريتك كنت عايش يابـا بـا ريتك كنت عايش يابا.

إنت هتندب .

حبايب عرض على والدى يشترى منه البيـت قبـل مـا يمسـك العمدية .

دى نقرة ودى نقرة .

يبقوا نقرتين .

هتتمقلت .. أحبسك .

ربنا ما يسامحك يا شيخ زهرى . حطيت الفتوى والعمدة نفذ .

وأطيعوا ا والرسول وأولى الأمر .

لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

هتعمل فيها الشيخ طنطن .

حاول المأمور بشتى الطرق .. مرة بالتهديد ومرة بالوعيد إستكتاب محزون إقراراً بالتنازل..عجز..بعدها إنتقلت شكوى محزون إلى معية وكيل النيابة س،جـ،جـ ،س..طلـب منـه وكيـل النيابـة مسـتند الملكية..لقد كان ضمن مستندات إختلسها العمدة عند إسـتيلائة علـى البيت وذيل وكيل النيابة التحقيق بعبارة مألوفة "ويبقى الحال على مـا هو عليه وعلى المتضرر الإلتجاء للقضاء " فى تلك اللحظة فقط وقبـل أن ينهض محزون سد بإصبعيه فتحتى أنفه..وكيل النيابة يسأل الكاتب مدهوشاً :

شفت .. سد مناخيره .. أكيد فيه ريحه نتنه .

رد الكاتب وهو يتشمم المكان :

فين دى .. أبدا .

وكيل النيابة يدق الجرس .. يدخل العسكرى .. يصيح فيه :

شوف ريحه النتانة دى جايه منين .

العسكرى يطوف على أثاث الحجرة .. يتشممه .. يقف مسمراً أمام الملف .. وكيل النيابة يستحثه :

شم كويس .

العسكرى يشير إلى الملف يتمتم :

الريحة النتنة هنا فى الملف .

لقد إشتم العسكرى رائحة العدل .

(١٥)

محزون يسير فى الشارع وقد حمل على ظهره صرة ملابسـه .. عز عليه المأوى أين يذهب فى هذا الليل الموغل فى الظلمة ؟! أجـاب على هذا السؤال وهو يتوجه لبيت صديقه زقلمه يطرق الباب فى تردد ..تخرج "خاطره " إمرأه تطفح بالأنوثه..جسد يشى بالرغبـة..يلهـث بالنشوة..من يتملاه يصيبه خدر الأفيون ينجذب إليه كمـا النحـل مـع رحيق الأزهار..هى لاتعرف لماذا ينجذب إليها الرجال لكنها تعـرف إنهم ينجذبون إليها..شـراهة أعيـنهم..توسـلات ملامحهـم..رجفـة أحاديثهم..غض محزون من بصره..لقد طال عينيـه شـعاع جنسـها الفج..صدمة إحتواها محزون..فى نفس اللحظة التـى صـدرت عـن خاطره شهقة أنثويه ساخرة :

مالك كفانا الشر .

رد محزون فى يأس مفرط :

أنا كنت كلمت زقلمه أستسمحه فى المبيت عندكم يومين ثلاثة لغاية ما دبر أمورى .

ردت خاطرة فى ود وترحاب :

قلوبنا وبيوتنا مفتوحه لك أدخل أدخل يا خوى .

فى نفس اللحظة التى أتاهما صوت زقلمه صوت فقط :

مين يا خاطرة ؟

صاحبك محزون .

يا قاعدين يكفيكم شر الجايين !!

رددها أكثر من مرة فى صوت خافت النبـرات قبـل أن يـنهض مرحباً بمحزون . يحتضنه يقبله.. يرفع شعار الود والترحاب بكلماتـه الخادعة :

دا إحنا النهاردة زارنا النبى إدخل. البيت بيتـك واحنـا ضـيوف عندك .

يحاول مواساته بكلماته اللازجة وهو يستجلسه بجواره على أريكـة فى حجرة المسافرين :

ولا يهمك بكره المحكمة تحكم لك.

رد محزون فى يأس طاغى :

هو فيه قاضى عنده شجاعه يحكم على جامع بالموت .

يا صديقى خد المسائل ببساطة وعلى قد حجمها .. راحـت ولـلا جت هو مطرح تحط فيه جتتك .

حل صمت مريب .. دق ناقوسه كلمات زقلمه :

خير يا محزون محتاج فلوس .

مستوره والحمد .

إمال فيه إيه ؟!

فى تلك اللحظة هبت زابعه محملة بغبار اللوم والعتـاب والإدإنـه لخسة زقلمه وخاطره تهمهم:

هو إنت ياراجل إتصببت فى نظرك !!

زقلمه ينظر إلى صرة ملابس محزون فى دهشة كإنه يراهـا لأول مرة يتراجع تسعون درجة :

يعنى هو السؤال حرم .

يستدرك بكلمات رصينة هادئة :

أهلاً وسهلاً .. شرفتنا وآنستنا .. ياللا يا خاطره .. همتك جهزى الغرفة القبلية .. شيلى الرفايع وحطى كنبه .. هو إحنـا عنـدنا كـام محزون ..

بنفس نبرة الإدانة و العتاب تخاطبه قائلة :

هى الغنم والفراخ رفايع يا زقلمه .. إنت إتخبلت يا راجل

خبله لما تخبلك وأنا إيه عرفنى .

تستهبل يا زقلمه أقطع زمارة رقبتك .

ما انت عارفه البير وغطاه .. المطرح يادوب على القد .

محزون يحاول رتق ثقوب الثوب بكلماته الهادئه :

يا جماعة هى كلها ساعتين زمن لغاية الصبح ما يطلع حتى لو نمت هنا ورا الباب .

خاطره تهدئ من روعه بكلماتها الناعمة المطمئنة :

الحجرة البحرية .. هاكنسها وروقها ورشها وافرشها اك دى عتبتها تنور بخطوتك .

حوار داخلى قاسى .. يحمل مضامين عدة داخل صدر زقلمـه .. يتحول إلى صراع حاد حول مبيت محزون..هو يردد.."مصـيبه مـا كانت على بالى يالطيف يالطيف" تترددها دواخله المرة تلـو الأخـرى

يريد أن يفصح بما يشاغله.."بقى يا واد تحط الكبريت جنـب البنـزين وتقعد تتفرج"..لكنه لايقدر وخاطره تلوكه بكلماتها :

سبتها لغاية ما العنكبوت عشش عليها .

زقلمه يرد عليها فى ضيق مكتوم :

اللى هى الأوده البحرية .

من ساعة ما إتجوزنا .. زى ما تكون عين !!.

وساكته ليه ما تنفضيها ؟!

ردت فى أيحاء :

ما انت عارف إيد المقشة .. راح عليها الزمن لا بتهش ولا بتنش .. كل اللى بتقدر عليه إنها بتكش !!

كلامك بيرمى لبعيد يا خاطره .

لبعيد لقريب كلها سكك مقفولة .

إفتحيها يا بنت حفيظة البلانة .

يا ريت بايدى .. كنت فتحتها على البحرى .. واللى زاد وغطـى إنت عارف لكن بتكابر .

عايزه إيه يا خاطره فى ليلتك المهببة دى ؟!

عايزاك تبحبحها .. خللى الفرحة تزفنا ولو مرة واحدة .

إيه الوقاحة دى .

لما اتكلم صح تقوللى وقاحة .. إنت يا راجل مش حاسس بنفسك .

أكيد عقلك طق .

يا ريت على قد عقلى دا كل اللى جواى.

رفعت ثوبها .. بان فخذاها .. صرخ زقلمه :

إتحشمى يا وليه ودارى لحمك .

إحتدم النقاش .. محزون لايفهم .. لايعى ما يجرى حولـه يـدير رأسه مره يميناً تجاه زقلمه ومرة شمالاً تجاه خاطره .. تمامـاً مثـل الأطرش فى زفة لماذا يتشاحنون .. وما هذا الطريق المسدود أو تلك المقشة التى تكنس أو هذا البيت الوقف .. كلها ألغاز.. شفرة لم يستطع محزون حلها وحدة النقاش تتزايد .. على ضفافها الشـائكة يزرعـان الألفاظ النابية وخاطره تستفز زقلمه بكلماتها :

إنت فاكر نفسك راجل زى كل الرجاله .

مالى ناقص رجل .. ناقص إيد .

إنت عارف .. كفاية عايشة وساكته وكافيه على الخبر ماجور .

إتكلمى.. فيه إيه ؟

يا زقلمه الإيد البطاله نجسه .

أنا قصرت فى إيه يا وليه .

فى حاجات كتير إنت فاهم وأنا فاهمة .. وكفاية كـده أحسـن وا أفضحك قدام اللى يسوى واللى مايسواش ..

نظرت إلى محزون كإنها تقصده قبل أن يهمهم زقلمه :

عيب يا خاطره دا أنا جوزك .

بأمارة إيه ورقه تبلها وتشرب مايتها .

إسكتى يا وليه .

إنت اللى فتحت الجرح يا ...

فى تلك اللحظة هبت صرخة محزون مدوية :

فيه إيه يا زقلمه ؟

رد عليه فى حسم :

أسكت إنت .

عاود من جديد صرخته لخاطره :

فيه إيه يا خاطره ؟

ردت هى الأخرى فى حدة ؟؟

اسكت إنت .

زقلمه مازال مصراً على فتح الجرح القديم بكلماته الموجعة :

وآخرتها يا بنت حفيظة البلاإنه !!

أنا واحدة ست محتاجة أَقِتْ فى طاجن مع راجل قِتْ .

حل الصمت لفترة وجيزة إستطردت بعدها خاطره :

ليلى مراد غنت سنتين وانا أحايل فيك وفات ثلاث سنين .. آخرتها يازقلمه يابن فكيهه العورة.

بس لو افهم إيه مشعوطك الساعة دى .

نظرت خاطره إلى محزون .. النظرة مختزلة على ضفافها كثيـر من المعانى الدفينة ..عبرت عنها بكلماتها الناعمة :

محتاجه مهدئ .. يطفى النار اللى جواي .

كلمينى بالمفتشر وريحينى .

طلقنى يابن فكيهه .

من غير سبب يبقى أكبر حرمانيه .

إنت لابترحم ولا بتسيب رحمة ربنا تنزل .. قاطع عنـى المايـة والنور. طلقنى ؟!

خلاص يا ستى قومى جهزى العشا .

(١٦)

بعد العشاء الساخن محزون جالس فى ركن قصى داخـل حجـرة الضيوف زقلمه يتأمله فى حسد وريبة وشك..مسـافة مـن الصـمت تجمعهما..لايشاغله سوى أمر واحد..ماذا بعد..يحـاول قطـع أحبـال الصمت بكلمات يحفها الرياء :

آنستنا يا محزون .

يتمنى لو يستطيع مصارحته بكل ما يعتمل داخله .. إنـه شـخص غير مرغوب فيه وأن فى وجوده خطر على زوجته النهمة المتعطشـة لماء الرجل .. لقد رأى فى عينيها وهج الرغبة ولأول مرة منذ زمـن بعيد تتأنق .. تتزين .. تتعطر ..باتت مثل سمك القرش تثيـر الـدماء غريزة الإفتراس لديه كارثة تهل بوادرها ..عليه أن يمنعهـا قبـل أن تسحقه وتحوله إلى ذرات.. ماذا لو أقدم علـى مصـارحة محـزون بالحقيقة النائمة قبل أن يستيقظ ماردها .. ماذا يقـول لـه .. عـاجز لايستطيع إختراق زوجته وفى اللحظة التى قرر فيها مصارحته "إسمع يا محزون" إقتحمت خاطره جلستهما .. تهفهف بذراعيها مثل حمامـة ..تتأود من فمها ضحكة خليعة وقبل أن تتوارى تثنت كلماتها :

إتفضل يا محزون جهزت لك الأودة .

فى رقدته على الأريكه يحاول إستعراض شريط الأيام الماضية .. أيام إكتوى فيها بالعسف والظلم حتى الآن مازال يستشـعر عـذابها .. يتذوق مرارتها الحرب المعلنه ضده من العمدة والشيخ زهرى حـرب

قذرة ليس فيها ذرة شرف منذ تلفيق التهم له . أسـبابها غيـر خافيـه عليه.. لاهى تخليص الناس من عذابات صلاة الجمعة فى الشـارع .. الحر والشمس والبرد والأمطار ولاتهيئة الراحة لهم لإداء شعائرهم بل هى التـنكيل به بعد أن تحدى سلطة العمدة ورفـض إمامـة الشـيخ زهرى وتمرد على الظلم .. الحقيقة الدامغة التى أطلت برأسـها مـن بؤرة الأحداث ضفيرة مجدولة بمهارة جمعت بين العمدة والشيخ زهرى فى توحد غريب .

فى رقدته تلك البلهاء يفكر فيما آل إليه حاله ..ماذا هو فاعل بعد أن فقد مأواه وهجره أصدقاؤه .. إبتعدوا عنه .. بات مثل جرب أو وبـاء .. فانطوى على نفسه يجتر أحزإنه هو لايدرى سبباً لـذلك .. مجنـى عليه يطالب بحقه المسلوب .. بيته المغتصب تنهـال عليـه ضـربات موجعة حتى من أعز أصدقائه .. فالبيت تحول إلى مسـجد وبالتـالى تساقطت شرعية ملكيته من ثقوب غربال ا الواسـعة بعـد أن ضـم غصباً لأملاكه وأصبح هو المالك الوحيد الذى لاينافسه أحد فى ملكيته .. كيف ؟!هو لايعرف لكن من ذا الـذى يقـدرعلى تحـدى إرادة ا والتعدى على أملاكه ؟! لقد إنقلب الناس عليه وقاطعوه وناصبوه العداء لأنه أعلن العصيان وهو يطالب بأحقيته فى المسجد .. تحول من مجنى عليه إلى جانى يريد الإستيلاء على أملاك ا !! رغم أن الحقيقة غير ذلك فالغربلة تمت على يد الشيخ زهرى بغربال السلطة وسيلة تحقيقها الغصب .. الإعتداء .. العنف .. تغيير الواقع لادخل لإله أو ولى فـى هذا!! .

النوم يخاصم محزون لمبة سهارى ترسل شعاعاً خافتـاً .. ظـلال الأشياء تجثم عليه .. هباب شعلة السهارى المتصاعد يطبق على أنفاسه .. يريد الهرب.. يجرى فى الشوارع ينقذف بجسده إلى مياه العباسـى ربما يتخلص من أحزإنه وهمومه الثقيلة .. ربما يتطهر من خطاياه .. ربما يغرق ليتخلص نهائياً مما يعذبه ويضنيه .. هـذه اللحظـة هـو لايطيق نفسه بينهما عداء .. هجرها..بكى محزون .. للمرة الثانيةيبكى منذ أن عانقته المحنة.بكى لقلة حيلته أمام عصا السلطة ومسبحة الـدين .. لقد سلبا بيته ومازال صامدا .. لكن إلى متى؟! .. ماذا يخبـئ لـه العمدة والشيخ زهرى من مفاجآت .. إرتفع ترمومتر ضغطه .. قارب رأسه الانفجار .. أحس بنفسه ذوب شمع محترق فـى نفـس اللحظـة تهادى لسمعه حفيف طرقات . مسح دموعه.. فـتح البـاب .. أمامـه خاطره فى قميص نوم أحمرساتان يعبقها أريج عطر نفاذ .. تراجـع للخلف .. أدرك إنه يرتدى السروال والفانلة إمتدت يده لتلتقط جلبابـه المعلق على مسمار فى الحائط .. من فرط إرتباكه لم يطاوعه الجلباب .. ربما يكون هو الآخر قد أعلن العصيان عليه .. ربما لسبب آخر .. أن تكتمل خيوط الإثارة .. فالأشياء مثل البشر ترى وتحـس وتحـب وتكره .. اليد الممدودة للجلباب تسـحبها أنامـل طريـة .. ناعمـة.. تصاحبها همسة طاغية :

لازمتها إيه ماانت كده على البيكو .

دهش محزون لهذه الجرأة بـل الوقاحـة .. خـاطره لماحـة .. إستشعرت إرتباكه حاولت تخفيف وقع كلماتها بتساؤلاها :

الدنيا حر ؟!

يعنى.

فاجأته بسؤال مريب :

فاكر أيام زمان يا ميزو .

سكت محزون .. أيام زمان وكلمات التـدليل .. إيـه الحكايـة ..

كررت تساؤلها :

فاكر وللا نسيت .

أجاب فى تردد :

فاكر .

كنت بتحبنى .

طيش شباب .

ولسه ..صح .

لكن إنت على ذمه راجل .

وهو زقلمه راجل .. قول خيخه .. نفيخه .. الإسم راجل والفعـل لامحصل راجل ولانص راجل .

ليه يا خاطره دا زقلمه مهننك ومستتك .

لكن الست بتتجوز ليه .

عشان تسعد جوزها .

وهو .

طبعاً عشان يسعدها

وإذا كان نص راجل لايقدر يخطى ولا يهوب ناحية جنتها .

فهم مغزى حديثها .. رد عليها فى إدراك :

تطّلق منه .

وإذا كان هو رافض .

تسلم أمرها .

ومين يخطى عتبة جنتها ؟

(١٧)

خاطره تجذبه من يده .. أجزائها ترنو إلى جسده .. تراخت فـور ملامسته خاطرت بالتمرد على طوق إرادتها .. لم تعـد تملـك زمـام نفسها شئ آخر تماماً يسيطرعليها.. رغبتها فى الإندماج معه .. رجفة تعتريها تسطو على سكينة جسدها وهى تحوطه بذراعيها هـو الآخـر تتباعد أجزاؤه .. تتلاشى وهى تضمه إليها ما أسهل إقتنـاص فريسـة يائسة محبطة .. هو فى متناول إرادتها .. عجينه لينه تشكلها كما تشاء تخدره بلهاثها ورغبتها تتماق عناده يحاول ردها فى رفق :

بلاش عشان خاطرى .

هو أنا هتحايل عليك .. إنت ياما جريت ورايا .

كنت طايش ..

مصيبة لو كنت شبهه .

فى وقاحة وكلمات سوقية فاجأته بقولها وهى ترفع الفانلة الجربـاء لأعلى :

إكشف ورقك .

محزون يتراجع .. خاطره تغلق باب الحجرة .. يلتصق صـدرها بظهره تتأوه بكلماتها .. تتسكع على نغم رغبتها :

أشوف.

تدفع أنامل يديها تحت الفانلة .. محزون شبه مستسلم .. غارق فى إغوائها.. قاسية أمواجه ويديها تزحف إلى أعلى ..مثل إمرأة العزيـز

لما راودت يوسف عن نفسه ولم يحصنه من الزلل سوى برهان ربه .. لكن محزون لايملك سوى إرادته هو .. يحاول دفع الرفض فى شرايين رغبته .. لكنه لايستطيع لايقدر وهى تدلك كتفيه .. ضروس رغبتهـا تطحن عناده وهى تلتصق به . صدرها العارى يـتلامس بظهـره .. همستها صاخبة :

إقلع الفانلة .. أشوف الجرح .. هو طاب ؟!

لقد مضى على هذا الجرح أكثر من خمس سـنوات عنـدما شـق قادوس ساقية الهلوتى كتفه أثناء محاولته إنقاذ جاموسة سـقطت فـى أعماق بئر الساقية يومها خاط الجرح عبد الوهـاب المـزين حـلاق القرية .

بدأ العد التنازلى للإستسلام ومحزون يغرق فـى مـوج أنوثتهـا الطاغى . فقد طوق النجاة وهى تخدره بقبلاتها .. تلهث وهـو الآخـر يلهث يهمس :

عشان خاطرى أنا مش حمل كده .

إنت خايف منى .. دا أنا حبيبتك القديمة ومن فات قديمه تاه .

تخصره بيديها .. تحاصره بنشوتها .هذه اللحظة تريد إمتلاكه لـن يمنعها عن ذلك سوى الموت تدور حوله نصف دورة تأتى من أمامه .. فى مواجهته تماماً سهام عينيها فى عينيه شعرها منسدل ينسكب بريـق ذهبه على وجه فى صفاء لبن تم قطفه فى التو مـن ثـدى حنـون.. إستشعرت إستسلامه .. ضعفه .. طرقت الحديد قبل أن يبرد .. قبلتـه راح فىغيبوبة .. سكرة.. سحبته إلى الأريكه فى اللحظة التى تحايلت

عليه صورة زقلمه .. داعبته التصورات.. عيونه تبكى دمـا .. دفـع خاطره صرخ :

لا..لا..لا .

قالها ثلاث مرات .. إما لماذا ثلاث ولم تكن سبع مثل سبع سموات أو سبع بقرات.. هو لايدرى لا أحد يدرى .

فى أحد شوارع قرية المتاعيس .. فشوارع القرية بـلا أسـماء أو عناوين.. شبح يسير فى الظلمة .. يزحف بقدمين كليلتين .. خطواتـه متعثره مترددة .. لايعرف وجهته.. لايدرى أين مبيته الليلة .. منذ أن غادر بيت صديقه زقلمه وهو هائم على وجهه أعياه السـير .. جلـس تحت جميزة هارون .. منهك .. متعب .. تكوم .. النعـاس يغالبـه .. على بعد خطوات منه بيت محب .. لكنه لايجرؤ فقد قاربـت السـاعة الثالثة صباحاً .. محب آه يا محب صديق طفولته وصباه .. لم يره منذ شهور .. إقتحمته الذكرى .. حنينه إلى الماضى .. أطفال فـى دائـرة والقمر يطل عليهم .. يخافون من العفاريت .. كل لـه قصـة محمـد الأعمى الذى أحبته جنية وإصطحبته معها إلى مملكتها ثـم عـاد مـن رحلته مبصراً لكنه مات بعد أيام مخنوقاً لايدرى أحد كيف .. سـمعه جيرانه فى أنصاص الليالى وهو يهذى بصـيحات هسـتيرية رافضـاً مغادرة بيته .. لقد قتلته الجنية شر قتله !! تذكر طفولته مع محب وهما يلعبان سوياً .. وهما يعتليان النورج وطاراتـه تقطّـع أعـواد القمـح وسنابله .. تذكر حبهما سوياً لخاطره قبل أن يقترن بها زقلمه .. بعـد أن تلاعب بعقلها .

نهض من مكانه .. وجهته بيت محب .. ساعتين حتـى يشقشـق الفجر وبعدها يحلها ألف حلال .طرق الباب .. محب فى الداخل يسمع دوى الطرقات .. ملتصق بفراشه وقد تملّكه الخوف .. ربما مباحـث المركز تحرت عن ضلوعه مع "مرايه" الذى يبيع له البهائم المسـروقة بثمن بخس ليقوم هو بغسلها فى سوق أبعد كثيراً من سوق المركـز . فى الزريبة بهيمتين .. مصيبة لو إكتشف أحد أمرهما إحتـواه رعـب قاتل كاد أن يبول على نفسه .. نواره فى صوت ناعس :

قوم إفتح يمكن أمك .

أمى فى الفجر ياوليه !!

قالها مستنكراً .

هو مدرك أبعاد المشكلة فلو كانت المباحث تطلبه فالموضوع خطير .. خطير.. تلكأ محاولاً الإستغراق فى النوم لكن إلحاح الخبطات دفـع نواره إلى غزه أكثر من مرة أعقبها تساؤلها :

قوم فز شوف مين على الباب .. إنت خايف !!

رد عليها فى صوت أجش كما هى عادة الرجال فـى مثـل هـذه المواقف :

أخاف من إيه ياوليه هو أنا عامل عمله.لو حد يهوب ناحية الـدار أطخه بالنار.. بس أنا متدفى فى الفرشة .. قومى إنـت ربنـا يسـهل حالك .

نهضت نواره متمتمة :

رجاله قش .

سألت قبل أن تفتح الباب أجابها محزون بصوت خافت :

أنا محزون !!

رأته مكوماً أمام الباب .. مجموعة من الأعضاء يلضـمها خـيط الحياة .. خبطت على صدرها همهمت متسائله :

مالك ؟

هللت له.. فرحت به .. لاتدرى سبباً لذلك .. إستطردت قائله :

إدخل .. أدخل ياخوى .

(١٨)

خرج محب من حجرة النوم مسرعاً إلى الصالة يحتضن محـزون وكإنه هدية من السماء فقد كان ينتظر صاعقة تحرقه .. منذ لحظـات كان طريد العدالة .. سمسار البهائم المسروقة أما الآن بعد أن إكتشـف حقيقة الوافد فهو برئ .. محزون متهافت .. ضائع .. متعب عبر عن ذلك بكلماته الواهنة :

أعذرنى يا محب .. الوقت غير مناسب لكن الظروف أقوى منى .

رد محب عليه بلسماً :

البيت بيتك .. تشرف فى أى وقت ..

إلتفت إلى نواره إستطرد قائلاً فى حماس متوتر :

الشاى يا نواره

لقد كان محب منذ لحظات سجين أفكار سوداوية .. لم يتحرر منها إلا بعد رؤية محزون.. محزون منقذه .. عاد يكرر بـنفس الحمـاس المتوقد عبارته السابقة :

الشاى يا نواره .

ردت نواره فى ترحاب :

قل الفطار .

إنسابت الضحكات .. تنوعت الأحاديث بين محـزون ومحـب .. عصفوران يتناجيان .. يغردان على شجرة الصداقة .. يسترجعان معاً أيام الطفولة والصبا فى الوقت الذى كان شاغل نواره إعداد الإفطار ..

خبزت " رحالى " باللبن.. سلقت البيض .. كشطت القشطة من الطاجن .. أعدت خرطتين جبنه بخيرها. أثناء الأكل تناقش الصديقان .. النقاش هادئ تتخلله نكات محب الساخرة وهو يتناول موقف محزون .. بـلا دار .. بلا هوية .. محب يعاتبه فى رفق :

لما الريح تبقى قوية لازم تنحنى لها .

كنت أعمل إيه يا محب ؟

كنت تليمها وتقبل عرض العمدة .

بلوى الدراع !!

نتيجة عنادك .. خسرت السقط والجلد .

المهم نفسى ..

أونطه.. كلام حشاشين .

سكت الإثنان .. بينهما حديث خفى لايستطيعان البوح به محب ماذا تريد يا محزون.. المهم قعدتك عندى ماتطولش يوم إثنـين بـالكثير .. ومحزون كيف أطلب منك إستضافتى ولو لمدة أسـبوع حتـى أرتـب أمورى خرج محزون من رداء الصمت بكلماته :

ياريت تستحملنى يومين ثلاثة لغإيه ما دبر أمورى .

ياراجل عيب .. نسيت إنك صديقى الصدوق .. وقفت جنبى وقـت محنتى يوم ما إتخلى عنى كل الناس من غيرك كان زمانى مرمى على البرش فى أراميدان .

سكت .. عاد مستطرداً :

قوم .. قوم .. ريح جسمك ساعتين ثلاثة قبل ما يطلع النهار

(١٩)

حجرة طينية مدهوكه بالجير .. يشغل الفرن نصف مساحتها .. قبة وفتحتين واحدة للخبيز وأخرى للطهى .. فوق القبة يرقد محزون على حصير متهرئ مستغرقاً فى النوم تناهى إلى سمعه حفيف طرقـات .. إستيقظت حواسه .. مغمض العينين .. نهض متكاسلاً .. ذؤابات النوم تلاعبه .. خطا الخطوة الأولى.. هبطت به الثانية إلى أسفل الفـرن .. تدحرج .. إصطدم بالأرض .. الصدمة

عنيفة.. تأوه .. شاغل نواره الواقفة أمام باب الحجرة هذه الضـجة وتلك الآهة .. دفعت الباب .. رأته .. محزون مكومـاً علـى الأرض شهقت .. فهمت .. قالت فى سخرية وهى تجذب يـده تسـاعده علـى النهوض :

وقعت وما حدش سمى عليك .

قال ساخراً :

نسيت إن أنا نايم فى ثانى دور .

ما يقعش غير الشاطر ..

أغرقته داخل نظراتها اللولبية .. بسرواله الطويل وفانلته الوسـخة وقد أطل منها شعر أسود كثيف حاد الأطراف .. بسرعة غير متوقعـة أجرت مقارنة فاز فيها محزون علـى محـب بالضـربة القاضـية !! تنهدت..التنهيدة من أعماقها البعيدة البعيدة جداً .. مدت يـدها بطبـق صاج إختبأ مضمونه تحت رصة خبز مرحرح تمتمـت فـى نعومـة وسلاسة :

صحن بصارة يستاهل بقك .

تلصصت المكان بعينيها فى فضول .. رغم أن الحجرة لاتغيب عن نظرها يومياً .. هذه المرة تراها بصورة أخرى .. الفوضى تشملها .. على أرضيتها طست نحاس.. صينية .. غربال .. محراث.. فـاس .. فوق الفرن حصيرة ومخدة ولحاف.. فى أحد الأركـان تنـام ملابـس محزون داخل صرة .. تلتقط الحصيرة .. تنفضها تعيدها ..تفتح الصرة .. تهب عليها رائحة عرق محزون.. تستطيبها .. تحمل الصرة.. تاخذ طريقها خارج الحجرة وقبل أن تغادر هزت رأسها فى أسى مصـنوع مصمصت شفتيها .. تلى ذلك كلماتها المرتلة المنغمة :

يا عينى الوحدة مرار .

(٢٠)

فى طريقه إلى حقله .. خلع ملابسه .. كومها خلف أعـواد غـاب تنمو على حافة المصرف.. عارياً كما ولدتـه أمـه .. إنقـذف إلـى المصرف .. يتطهر من جنابة أمس .. لقد رافقته جنية ناريـة حتـى الهزيع الأخير من الليل .. ظل يحضنها ويقبلها حتـى أفـرغ شـهوته صور مشوشة غريبة .. جنية باهته الملامح تتعرى ثم تأخذه لأحضانها ينهل منها كما يشـاء وتنهل منه كما ترغب .. لكن من أين أتت

ولا كيف أتت هو لايدرى..كل ما رآه فى الحلم مغلـف بالضـباب مكسى بالغموض.. الماء بارد..إرتجف وهو يغوص فيه برأسه المـرة تلو الأخرى..يتلو التشهد..فى لحظة خروجه من المصرف ساعياً إلـى ملابسه .. رأته "دهبية".. بنت فاجرة تندب فـى عينهـا رصاصـة .. أغرقت أسفله المشعر بنظراتها النهمة .. تلاها شهقة.. تنبـه محـزون لتواجدها المفاجئ .. إعتراه الخجل .. توقف فـى مكانـه .. إحتوتـه الحيرة.. ماذا هو فاعل .. حاول بكفيه مداراة أسفله .. إرتبك ودهبيـه فى مكإنها ترمقه .. تنفرج شفتاها عن إبتسامة عارية أعقبها ضحكة .. كلمات سوقية :

نفسى أشبع منك ليلة ..

قفز محزون إلى المصرف .. غاص تحت الماء وقبـل أن يرفـع رأسه لملمت دهبية ملابسه.. واصلت سيرها .. هى تسير على الشـط وهو يسبح فى نفس إتجاهها فى الماء محزون يتصايح :

الجلابية يا بت .. بلاش فضايح .

تتوقف .. تلوح بملابسه .. تفوح من كلماتها رائحة الفجاجة :

إطلع خدهم .

وأنا عريان .. عيب يا دهبية .

تتجوزنى .

ألبس الأول وبعدين نتكلم فى موضوع الجواز .

تواصل سيرها .. محزون فى مأزق .. البنت مخها طـق .. رأى مخلوف.. نجدة من السما .. صاح به :

إلحقنى يا مخلوف .

مارثون طويل إستطاع مخلوف من خلاله أن يحصل مـن دهبيـة على ملابس محزون .

محزون يتجول فى حقل الكوسـة .. واسـع الأبعـاد .. مترامـى الأطراف .. عيدان الكوسة تنمو فى ثقة وإعتزاز .. الأزهار الصفراء تفتحت تحول الحقل إلى ثوب أخضر تلونت أطراف نسيجه بالإصفرار .. أيام ويتساقط الحبل السرى للأزهار لينمو مكإنه الجنين الأخضر .. إحتوته فرحة غير مسبوقة وعصفور الجنة يتوقف على شجرة البرقوق .. يزقزق .. إنه يشدو للزهور الصفراء .. يشـدو للونهـا البهـيج .. فالطيور مثل البشر تسعد برؤية الزهور .. حادثه محزون فى ود .. ود كثير :

النواره طلعت .

سمع منه شدواً كثيراً حاول ترجمته .. بعد جهد جهيد إستطاع فهم بعض مقاطع الزقزقات إنه يعبر بها عن فرحته فـى أغنيـة عنوإنهـا زهرة الكوسة الصفراء .

(٢١)

عاد إلى البيت مزهواً .. تحمله أجنحة الفرحة .. السعادة تتقافز من ملامحه إنه العدل الإلهى .. أخذ مـن هنـاك ووصـل مـن هنـا .. المحصول وفير .. الثمار جيدة .. يريد التصايح .. التعبير عن فرحته .. رأى نواره لم يستطع كتمان سعادته .. تمتم فى بهجة :

الكوسة نورت .

ربنا ينور دنيتك

فور ولوجه الحجرة .. إحتوته الدهشة .. الحجرة مرتبة .. نظيفـة .. الأرضية كنست.. طبلية تعتلى القبة غطاها جلباب حريمى .. رفـع الغطاء طبق سبانخ مدفوس فيه قطعتى لحم وطاجن أرز معمر.. أكـل محزون حتى امتلأ .. أتى على الطعام .. عبرت نواره عن سـعادتها وهى تحمل الفوارغ هامسة :

مطرح مايسرى يمرى .

محزون هو الآخر يعبر عن إمتنإنه بكلماته :

أفضالكم غرقتنى .. ربنا يقدرنى على رد جمايلكم .

عيب يا محزون دا انت ضيفنا .

خايف أكون ضيف تقيل .

تقيل وإنت أخف من الريشه .

ضحكت ..الضحكة أنثوية خارقة للعادة .. سكنت أمواجها على شط إبتسامة محزون .. بين الإثنين حوار داخلى شجى صامت .. لايستطيع أى منهما البوح به

صاح محزون فى دهشة :

هى دى حجرة الأرانب ؟!

كانت لكن من الساعة دى غرفتك .. تقعد .. تاكل .. تشـرب .. تستحمى فيها لا حد يشاركك ولايضايقك..ويا سيدى بالإيجـار عشـان القمصه إياها .

بالأمس طال حديثها مع محب .. ضربت بحديثها على وتر جشعه حتى يوافق على سكن محزون .. قرشين نلهفهم منه .. يساعدونا فـى المعيشة ويفكوا زنقتنا.. ويفصلنا عنه جدار .. تمام زى الجار .

رفض محزون الاقتراح فى البداية .. لكنه قوبل بعاصفة هوجاء من الإصرار ونواره تدق المسمار الأخير فى نعش مقاومته :

إنت محتاج ونس وحد يرعاك بدل رمية الغيط .

أنا مش عايز إحراج .. كلام الناس كتير .

اللى فى بقه كلمة يبلعها . واللى معاه ماس لايهـتم ولايسـأل فـى الناس

أشارت لقلبها .

(٢٢)

منذ الصباح الباكر ومحزون يعمل فى الحقل .. ينقى الحشـائش .. يسمد الأرض .. يرويها .. أثناء عمله يشمر أطراف جلبابه الواسع فى عقدة بين فخذيه..لماذا بين فخذية هو لايدرى .. مـن يـراه يسـترجع التاريخ .. أحد فرسان العصور الوسطى وهو يتعامل مع الـزرع فـى فروسية .. يحنو عليه .. يرعاه كأنه يقبله .. تعامدت الشمس .. الحـر لافح .. آن أوان القيلولة.. دخل محزون الخص.. الهواء طسه.. نام .. إستيقظ على نداء ناعم الملمس أمام باب الخص تقف نـواره .. تهـدج صوته فى دهشة :

نواره !!

أنا قلت أكيد جعان .

فى يدها صرة .. فردتها .. جبنة وقشدة وخبز مرحرح أعقب ذلك كلماتها :

كل يا أخوى دا انت من صباحية ربنا شقيان .

تأملت الحقل .. الأزهار الصفراء تطفو على أمـواج الخضـرة .. حادثت نفسها بحسرة :

اللى يقدر يرعى الزرع دا كله أكيد قلبه رهيف .

محزون يلتهم الطعام .. جائع .. نواره تشعل بعض فروع الأشجار .. تضع على النار غلاية الشاى .. صوتها متهدج :

كنت عايز تعيش وحدك هنا .. يا مرارى .

بحب الزرع يا نواره .. مش عايز أفارقه .

الزرع بس واحنا !!

قالتها بايحاء :

إنتم أهلى وناسى من غيركم كنت إيه دلوقـت ولا حاجـة .. زى المتسولين.

ياريت يتمر .

أعقبتها بضحكة أنثويه .

أفضالك على دماغى من فوق .. أطلبي وأنا أنفـذ لـوعينى مـش هابخل بيها عليكم .

ياه دا إنت كلامك يوجع .. سلامة نظرك .

محزون يرتشف الشاى .. يشير بإصبعه على الزرع .. يتمتم :

شايفة النوار يا نواره .

يشرح القلب .

سكتت .. عادت مستطردة بأسى :

عارف يا محزون إن الستات زى الزرعـة تـدبل لـو صـاحبها أهملها .

معلوم لازم يرعاها ويصونها ويحميها .

نواره من جديد بعد أن فتح الحديث شهيتها فى الكلام :

زى الزرعة محتاجة شمس تدفيها ونسمة هوا تشمها .

أهى الوسعاية قدامك خدى منها ضربة شمس قبـل مـا تروحـى وعبى قزايز هوا !!

قالها مازحاً .

يا عبيط هو فيه شمس غير حضن الراجل وريح غير نفسه .

كلام غويط قوى يحتار فيه الشيخ زهرى نفسه .

والشاطر يوصل لقراره .

واللى بيغرق فى شبر ميه زى حالاتى ؟!

يلاقى كل كنوز الدنيا .

فايدتها إيه بعد ما يكون ودع .

أعلمك العوم .

فى ترعة ولا تشط .

ما انت هو بتعرف تنكت .

وأقول مواويل وفوازير .

إنت هتغنى يا محزون .

وأضرب الأرض تطلع بطيخ .

حمرا وللا قرعه .

ضحكت .. ضحك .. ضحكا .. إقتربت منه كثيراً .. أكثـر ممـا كانت تتصور فالجهامة التى تحملها ملامحه ينام تحت غلافهـا طفـل صغير .. وديع .. مسالم .. لكن هل هو بهذه السذاجة وتلك العفوية .. إنه يتغابى .. هو يفهم أبعاد مكنونها.. ثورتها الداخلية .. عشقها به .. لكنه ينكر ذلك فى كل كلمة ينطقها .. إنه يعبث بقدسية ما يخالجهـا .. بل يهمله .. يفهم مرادها لكنه يبتعد عنه فراسخ وأميال يبتعـد ويصـر على الإبتعاد .. نواره لاتدرى ماذا دهاهـا .. كـل أبعـاض جسـدها

تناديه.. تسجد له .. حتى خصيلات شعرها تتوق للمساته دون جـدوى لقد فكرت فى أن تصارحه لكن تملكها فزع رهيب لمجرد التفكير فـى فقده .. من اليأس نسجت سخريتها قائلة :

تعرف تسلم لى على قطر الرجبيه .

رد عليها فى ذكاء لماح :

أسلم عليه عشان يدهسنى !!

إبتعدت نواره إلى نبت الكوسة تتأمله .. المسافة التى تسمح لها أن تعوى بكلماتها دون أن يسمعها محزون .. تعبـر بهـا عـن ثورتهـا المكبوته .. تعلن عن معالم رغبة جارفة بدأت تظهر معالمها .. مثـل الآثار .. المزيد من الحفر ربما يحطم رموزها الجميلة .. نبراتها حادة :

ابن الكلاب هيجننى .. أى سكة أفتحها يسدها بالأسمنت والزلط .

(٢٣)

فى حجرة الضيوف .. الثلاثة يتجالسون محب ونواره ومحـزون فوق حصير باهت الملامح .. أمامهم طبلية على سطحها تنـام مائـدة شهية .. بطة محمرة وبرام أرز معمر وطاجن باميـة .. الليلـة ليلـة نصف شعبان .. الناس تحتفل فى تلك الليلة بتناول أجـاود الطعـام .. محب يمسك بيده البطة .. يمزقها لثلاث أنصبة النصف لـه والآخـر لنواره ومحزون .. الأيادى تمتد والأفواه تمتلئ وتبتلع.. محب يطلـب فى صوت جهورى فص ليمون .. ربما ليثبت أمام محزون أن طلبـه مستجاب ونواره تشق ليمونه تعصرها على ثمار البامية المطبوخـة .. الكل لاه عن الكلام بالطعام .. فجأة شذ محزون بغريب القول :

باركولى !!

لم يعر إيهما إهتماماً له .. فقد كثر حديثه فى الأيـام الفائتـه عـن الكوسة وإنتاجها والمحصول الذى لايضاهيه إنتاج آخر .. كلام ممـل ومعاد .. سأله محب بلا إكتراث :

خير ؟

إمبارح زفونى .

محب من جديد بلا مبالاة :

وعلقوا على راسك طرطور .

بتكلم جد يا محب .

جد عن إيه .

أنا اتجوزت .

صاعقة .. توقفت اللقمة فى حلق نواره .. نظرت إليه مشـدوهة .. تطوحت لديها المفاهيم معتوه أو مهفوف .. لايمكن أن يكون واعياً لما يقول .. متى حدث ذلك وكيف ؟! ومن هى المرأة التـى تزوجهـا ؟! محب هو الآخر يبعد الملعقة عن فمه بعد أن هم بها .. حملق فى سحنة محزون الهادئة المطمئنة الواثقة وفى محاولة منه لفهم مرمى حديثـه سأله ربما تكشف إجابته عن الغموض المبهم :

إتجوزت وزفوك إمبارح واحنا كنا فين ؟!

كنتم نايمين .

نواره هى الاخرى غير مصدقة إنه من الممكن أن تخطف إمرأة ما يخصها .. ما تملكه بيمينها .. سألت فى فضول قاتل :

إتجوزت ست ؟!

ولا كل الستات .. جمال وحسب ونسب .

كل دا حصل واحنا نايمين على روحنا .

قالتها فى غضب .

إستطردت بعدها قائلة :

فين .. إوعى تقول فى أودتك .

لا فى قصر أبوها .

محب من جديد :

قصر .. إنت إتهفيت فى عقلك .

طوبه دهب وطوبه فضة

جن الرجل الرجل جن .. سايره محب فى نبرة ساخرة :
ومطعمه بالعقيق !!
نواره من جديد فى سخرية :
وهى فين العروسة ؟
نظر محزون إليها نظرة طويلة متفحصة رد متسائلاً :
صحيح هى فين !!
عاد بعدها مستطرداً :
أكيد قاعدة فى قصر أبوها سرقيوس .
أسقط فى يدى نواره .. هدأت أنفاسها .. زال توترها .. دش بـارد
على رأس ملتهب بالحمى وهى ترد عليه قائلة :
إنت كنت بتحلم يا محزون ؟
وفيها إيه ما الأنبياء كانت بتحلم وصدقناهم .
رد محب فى ضيق :
الأنبياء مش محزون .. أسكت خلينا نتهنى باللقمة .
صدقنى يا محب .. دا حتى أبوي شهد على العقد .
طلع من جهنم عشان يشهد على العقد .
إنت بتتمقلت على ؟!.
بالعكس أنا مصدق كل كلمة .. بالأمارة أنا كنت الشاهد الثانى !!
كويس إن إنت إفتكرت .
بادرته نواره بضيق ..حتى الخيال لاتريد أن تشاركه فيه إمرأة :
وأخبار العروسة إيه ؟

عاصية .

ضحكت نواره .. ضحك محب .. علق قائلاً :

خايفة تحبل فى ولد نصه إنس والنص التانى جن .

لأ دا عاصية تعيش معايا .

سألته نواره فى حدة حتى الوهم تضيق به :

تعيش معاك فين ؟

هنا فى أودتى !!

فى تلك اللحظة هبت زا بعة تقتلع كل ما قاله محزون ومحب يـرد عليه فى حده :

أكيد حصل لمخك حاجة .

المشكلة أعمل إيه لو هى أصرت ورفضت تعيش معاى .

سايره محب قائلاً :

الحل إنك ترفع عليها دعوى طاعة .

إستراب محزون .. تفكر .. الفكرة عبقرية سأله فى لهفة :

وارفعها فى أنهى محكمة ؟

أكيد للجن محاكم زينا .

قالها محب ساخراً .

سأله محزون فى جدية :

تعرف إجراءاتها !!.

نظر محب إلى نواره .. يستطلع ردود أفعال ما يتفوه به محزون ..
رفعت نواره حاجبها حوار داخلى يشاغل محب .. هـو عبـيط ولـلا
بيستعبط .. واجه محب محزون فى نبرة حادة :

إنت بتتعاطى هباب ؟!.

رد محزون ضاحكاً :

هباب الفرن .

قم نام .. تصبح على خير .. يمكن تشوفها فى المنام .

(٢٤)

شئ ما يشغلها .. يقلقها .. حط عليها مثل طائر جارح .. هى الآن بين مخالبه لاتستطيع الفكاك منه حتى لو أرادت .. لاتقدر.. مسلوبة الإرادة مبهورة بعذريته .. رجل لم تمسسه إمرأة لم يرى فى حياته نهدى إمرأة عارية .. لاتدرى لماذا هى شغوفة به .. سنين عمرها فى مقابل رشفة من مائه .. عشقها به غريب الأطوار لم يمر أبداً بمراحله المألوفة الطفولة ثم الصبا .. لقد ولد فتياً قوياً لم يحبو بل سار على قدميه متخايلاً مزهواً..عشقته وهى لاتدرى كيف بعشقها أن يرتوى..كل ما تريده أن يبقى محزون بجوارها..أن تتدثر بخياله..أن تشم عبق رائحته..ألفته..ألفت خطوته الهادئة المطمئنة..أدمنت رؤية ملامحه..سماع ضحكته..كلماته..كلما رأته خفق قلبها تقمصها شيطان الرغبة أن يدوس الوحش الكامن فيها بجسده الفتى العنفوان..أن يروى بداخلها كل سنوات الحرمان واللهفة والجوع والعطش..هو ينبوعها المتدفق..تريد أن تروى بقطراته جامح رغبتها فى إحتضانه..أن يركب صهوة جوادها وهى تصهل فرحة مبهورة به وهو يسوسها حتى لو كان مبتدئاً يجهل كيف يسوس الجواد !! ستعلمه كل أفانين الحب ستدربه حتى تعبر به مسافات الزمن..هى لاتحتمل فراقه لهذا عارضت بشدة رغبته فى الانتقال للعشة التى أعدها فى حقله وبكت فرحة عندما إستسلم لرأى محب .. "لغاية ما تجهز مطرح يليق بك" قلقة لماذا هو معشوقها دون غيره .. هى لاتدرى لقد ملك عليها حواسها..تراه فى

نومها ويقظتها.. فى أحلامها أمير يخطفها على ظهـر فـرس أبـيض وخلفهما محب يولول ثم يصحبها إلى غابة يفترشـان معـاً الزهـور يمارسان الحب الحقيقى..إندفاع..تهور..شجن..سعادة.. يحتويهـا فـى أحضإنه .. تلهث فوق صدره..يستشعر لفح نارها..حتى وهـى يقظـة تعيش لحظات حلمها .. لم تعد تفرق بين الحقيقة والحلم..واحد..لم يعد للتقاليد لديها معنى إنمسحت خطوطها تماماً من ذاكرتها..تعـيش بـدلاً منها عشق محزون..عرفت أخيراً إنها لم تكن فى وقت مـن الأوقـات تهوى محب..حياتها معه مضت بلا طعم..مثل الخبز البايت..ليس فيـه لوعة الحب ولا رائحة الورد ولا رحيق الزهر ولا غمـوض البنفسـج على وتيرة واحدة لاتتغير ولا تتبدل حلقة مملة من حلقـات مسلسـل لاتختلف عن بعضها..أول مرة تستشعر معنى الحب الحقيقـى لكنهـا تتوق لحضنه.. لقبلته..لسخونة أنفاسه على رقبتهـا..كـل هـذا بعيـد بعيد..دخلت الحجرة خالية إلا من أشياءه..جلبابه وفانلته وسرواله معلقة على مسمار فى الحائط..إمتدت يدها تلـتقط تلـك الأشـياء..خلعـت ملبوسها..إرتدت الفانلة والسروال..صعدت إلى السرير..تمطط جسدها على المرتبة تعبقت جوانحها برائحة محزون.. تقلبت..مثل من يتقلـب على جمر من النار..تفجرت غرائزها الكامنة..خيـل لهـا إنـه فـى أحضإنها تتمرغ على صدره..راحت فى وغى حلـم موجـع..ظامئـة تسعى للماء..تاهت عن واقعها..إستغرقها تفاصيل الحلـم الدقيقـة..أن محزون يطوقها بذراعيه..بين طيات رغائبـه وأن فانلتـه وسـرواله المتلامس بعريها جلده المتوقد بالرغبة..أجزائها تتوهج بالنشوة تتحرش بالرغبة فى نهم إلى لمسة..قبلة..تروى ظمئها..تطفئ نارهـا..تشـبع

حرمإنها..استفاقت على حركة غير مألوفـة خـارج الحجـرة..ربمـا محب..نهضت مسرعة..إرتدت جلبابها..إنه محزون..رآهـا..تراجـع للخاف..مدهوش وهى تسرع خارج الحجرة وقد بانت أطراف سرواله من تحت الجلباب .

(٢٥)

الليل يوشك على الإقلاع والفجر يناضل للأعلان عن نفسـه مـن خلال خيوط الضؤ المنقوشة على أبواب الظلمة.فى فراشها تتلظى ناراً موقدة..بجوارها محب يرقد فى سابع وربما فى ثامن نومه..منذ لحظات قليلة كانت بين يديه عجينة طيعة أسلمته أقدارها..لكنـه عجـز عـن إنضاج رغبتها !! قدمت له ورودها لكنه لم يقدر على قطفها..مجـرد ملامسات أشعلت رغبتها دون أن تطفئها..عجـز عـن قيـادة فـرس جامح..ظل يصهل ويصهل حتى بعد أن سقط الفارس من فوق ظهـره !! تركها خرقة مبللة بعرقه..تهفو إلى وميض أخاذ يرجفها..يعيد لها ما انسكب من أنوثتها..أزاحت ساق محب الهزلية عن جسدها..لـم تعـد تطيق فراشاً يجمعهما سوياً..ألح على خاطرها محـزون..كيـف هـو الآن..نائم..متيقظ..يحلم بتلك الجنية التى ملكت عليه حواسه..أخـذتها الغيرة..إمتلكها الغيظ..إنه الآن فى صحبة تلك الجنية يتجولان معاً فى فردوس الحب..تزاحمت داخلها الأحاسيس إنها تريده..ترغبـه..علـى استعداد لتدفع مقابل لحظتهـا معـه سـنين عمرهـا..نهضـت مـن الفراش..غير عابئة بكل ما تلقنته من أبوها "علوانى" العرض والشرف إنها تريد هذا المحزون وإذا لم تستطع نيله ستموت كمداً..أسرعت إلى الحوش..الهواء البارد لطسها..رغم برودته لم يهدئ من ثائرة أحاسيسها إندفعت إلى حجرة محزون..تعرف تماماً هدفها حددته قبل تلك اللحظة بأيام..تسللت من الباب على أطراف أصابعها..لهثت لرؤيته..سعار هو

ما يحتويها..ستموت إذا لم تعثر فريستها..فقدت مقاومتها وهى تتقـدم داخل الحجرة فى خطوات مسروقة..لم يعد يشاغلها سوى أمر واحـد فقط..الإنغماس داخل جسد محزون..جسدها يتبـع إرادة مستسـلمة.. رغبة جارفة فى محزون أن يلتقى الجسدان فى أنشودة لذة وليكن مـا يكون ولتنطبق الأرض على السماء .. ولتنفجر غضبة الإله ولتـدوى صرختة فى أركان السماء مستنكراً ما تفعله .. فهى مقدمة علـى رى أرضها الجدب من ينبوع حبه..كل ما ترغبه أن يفيض عشـقه علـى شطئانها العطشى.. كل ما بداخلها فوضوى وهى تنفخ شـعلة اللمبـة السهارى .. تطفئها .. إنغمس فضاء الحجرة الضيق فى ظلام دامس .. صعدت إلى السرير فى رشاقة قطة .. إنسلخت عن قميصها .. إنزلقت بعريها داخل حشيته .. جسدها يرتجف .. يتلاشى وهـى تلامسـه .. تفتحت حواسه وقبل أن ينساق لليقظة همست فى شبق لذيذ :

إياك تفتح عينيك وللا تشوفنى .. نظرك يروح وتتمسخ لقرد .

محزون يغمض عينيه .. لكن هذا لم يمنعه من طرح سؤاله :

خلاص غيرت رأيك وهتعيشى معايا ؟

هس ولا كلمة تانية ..

مستسلم لترياقها إستسلام الرافض وكلما أوغـل فـى نشـوته ذاب إستسلامه حل محله رضاء وهى تعلمه فنون الحب العذرى !! يفجـر داخلها ينابيع كامنة .. كانت كامنة تغطيها طبقات زمنية طويلة منذ أن تزوجت محب .. مزق محزون قشرتها بحفار ينقب باحثاً عن المـاء.. ورواها وإرتوى .. عبقته بمسك أبدى وهو يسـطر علـى صـفحات

جسدها الخضر أروع وأغنى وأثمن كلمات فى الغزل والعشق وقبل أن يشقشق الفجر وأثناء غفوته إرتدت ملبوسها.. إنسحبت مسرعة .

شعاع الشمس يتسلل فى رفق من خلال كوة فى أعلـى جـدار الحجرة يغمر وجه محزون ربما ليخبره أن النهار أقبل وأن العصـافير زقزقت وأنه آن آوان الإستيقاظ .. لكنه مازال مستغرقاً فى حلم أمـس .. زوجته الحبيبة وقد أتته خلسة وغادرته خلسة حتى دون كلمة وداع.

نواره تطرق الباب .. تدخل .. تحمل بيديها صينية على سـطحها طبق قشدة ورغيف خبز مرحرح .. محزون يستيقظ .. مـازال علـى عريه .. يغطى جسده بأطراف اللحاف .. نـواره تتـأود بجسـدها .. تتسكع بخطوها .. متألقة فما زال الأمس فى حضنها .. تتنسم عبيره .. صوتها فرح .. بهج .. كلماتها يفوح منها عطر أمس :

صباحية مباركة يا عريس .

محزون يرد عليها فى دهشة مزجتها البلاهة :

عرفتى ؟!

فوجئت برده الغريب .. للحظات مشدوهة .. تترنح خواطرهـا .. هل هذا معقول .. إنه يجهل تماماً إنها رفيقة فراشه بل يعتقد أن الجنية هى صاحبة رحلة عشقها عندما إستطرد قائلاً :

إمبارح كانت ليلة ولا كل الليالى .

هل وصلت به السذاجة إلى هذه الدرجة فلا يستطيع التعرف عليهـا وهى عارية بين أحضانه ولا على رعشة صوتها أو رجفة جسـدها .. لقد أفقدت كلماته توازنها وهى تدق أسماعها .. فى البداية لم تستوعب

ما يقوله لم تعى ما يرمى إليه إلا بعد أن كرر سؤاله المرة تلو الأخرى :

إنتى عرفتى إزاى ؟!

وليكن وليظل على اعتقاده أن الجنية هى رفيقة فراشة.تركته نواره ولحن نشاز ترتفع نبراته.. إنها بالنسبه لمحزون مجهول .. هى ليست هى ..بل مجرد جسد يرتدى لباس جنية .. إنه لايعشقها هى بل يعشق مضمون آخر لاينتمى إليها .

(٢٦)

على ظهر حماره الحصاوى .. الفرح يستخفه أناشـيد وأهـازيج وأغانى تترنم داخله .. صوت الجنية يلاحقه .." إياك تفتح عينيك وللا تشوفنى نظرك يروح وتنمسخ لقرد" حتى إسمها يجهلـه. فـى المـرة القادمة سيتمرد عليها سيتوجه بسؤاله لها .. يحادث نفسه .. يحاورها وهو يهبط من على ظهر الحمار وهو يخلع ملابسه ويغوص فى ميـاه المصـرف .. الماء بارد .. تشهد سبع مرات خرج ومازال الحـوار يملك عليه حواسه .. إنتهى إلى نتيجة حاسمة.. تمتم بها فـى صـوت مسموع " لن أفعل .. أفعل "

واصل مشواره وهويمتطى صهوة حماره إلى حقل الكوسة .. فرح برؤية الزهور الصفراء وقد بدأت تذبل خلفها تنبـت ثمـار خضـراء صغيرة فى خجل رآه يقفز فى الأنحاء .. عصفور الجنـة .. قبـل أن يفرد جناحيه ويطير صاح فيه محزون :

إنتظر !!

زقزق العصفور.. الزقزقات مثـل ألوانـه المبهجـة..الأخضـر والكستنائى والأصفر.. فهم محزون معنى الزقزقات..فحواها :

ماذا تريد منى ؟!

سؤال محيرنى .

قل وخلصنى .

رافضة أبص لها .

من هى ؟

الأميرة .

أى أميرة ؟!

أميرة الجن .

والسبب ؟!

لا أعرف .

إنت كذاب .

فى القريب العاجل سأثبت لك صدقى .

متى ؟

لا أدرى !!

وطار العصفور بعد أن زرع فى داخله الشكوك .

(٢٧)

محزون فى إنتظارها أيام وليالى .. لقد قرر أن يقطف من رأسـها شعرة حتى يتاكد إنها الحقيقة وليس مجرد حلم يراوده بالليـل .. لقـد أصبح فى حاجة لأن يصدق نفسه .. طال إنتظاره.. ليـالى مسـتيقظاً وعندما ينام لا يأتيه سوى أضغاث أحلام لكن هذه الليلة عاد من حقلـه مهموماً فقد أصاب الكوسة المن .. غدا فى الصباح الباكر يرش الحقل بالمبيد .. نام إستغرق فى النوم .. أتاه حلم غريب .. شيخ مسن يرتدى لباساً أبيضاً بلحية بيضاء وتحيطه هالة من نور يتقدم نحوه يأخذه مـن يده يطير معه داخل أبـراج مـن السـحاب .. يـرى مـا لـم يـره بشر..الملائكة الأطهار تحلق فى السماء .. وعندما سأله محزون أشار له بالصمت .. يرتفع به إلى أعلى .. يرى ما لم يحلم بـه إنسـان .. بيوت معلقة فى السماء بلا عمدان .. توقف الشيخ أمام قصـر فـاخم ضمن قصور منزرعة فى الفضاء طرق الباب فانفتح عن عفريت مـن الجان .. لايرتدى ملبوساً لكن جسده كهرمان .. رأى فيه الحب والسلام والأمان .. دخل بهواً فسيحاً لايحده زمان ولا مكان .. نظر محـزون حوله.. لقد إختفى الشيخ المهيب وتركه فريسة للظنـون والأوهـام .. لحظات وهو فى وقفته تلك يضرب أخماساً فى أسداس ويسـأل نفسـه ربما حلم من الأحلام .. أمامه مخلوقات نورانية تروح وتجئ ترفض الحديث والكلام .. أطال به المكوث دون أن يعرف سـبباً لكـل هـذا الإهمال والهوان . لكنه رأى ثريات تقترب.. تحملها أيادى أطفال يشع

من أصابعها ضياء يعم المكان .. وطفل يردد أغنية ويعزف على كمان .. وكلما سأل لا تأتيه إجابة حتى ظن إنه فقد العنوان لكنه رآها علـى سرير مخملى يحوطها الفتيات و الغلمان .. على موج غيـر منظـور يهزهزها فى حب وحنان .. مدت يد العشق إليه فارتفع إليهـا بجسـده يعلو به السرير المخملى مثل طير فى الأركان .. يعلو وجهها خمـار من نسيج السحاب .. حاول أن يستشف ما خلفه إلا إنها عاجلته بكلماتها :

كما إتفقنا حتى لا تتمسخ لقرد ولا يروح نظرك .

أشوفك ولو لمرة واحدة .

لو شفتنى تتحرم على .

خليكى معايا على طول .

أخويا يقتلنى .

يقتلك وأنت مراتى .

ما أنت رفضت تعيش معاي .

أعيش معاك ومين يرعى أرضى مصالحى .

سكت عاد مستطرداً :

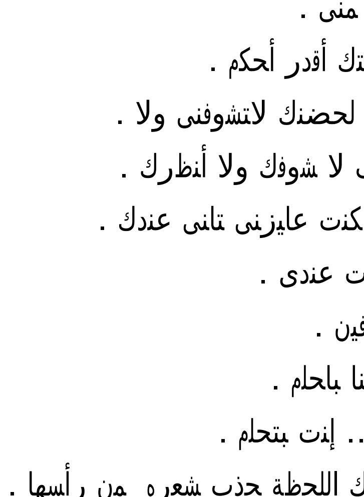
بالحق .. إنت إسمك إيه ؟!

نواره .

نواره الكوسة وللا نواره مرات محب صاحبى .

هى جميلة ؟؟

جمالها لا له مثيل ولا وصف .



أجمل منى .

لو شفتك أقدر أحكم .

خدنى لحضنك لاتشوفنى ولا .

عارف لا شوفك ولا أنظرك .

دا لو كنت عايزنى تانى عندك .

هو إنت عندى .

إمال فين .

أكيد أنا باحلم .

صح .. إنت بتحلم .

فى تلك اللحظة جذب شعره من رأسها .

(٢٨)

جلسة جوزة معمرة جمعتهم..محـزون ومحـب وفهـيم ودمـور والجرف..سـطلة الحشـيش أفقـدتهم الـوعى..فجـرت أحاسيسـهم المكبوته..كل منهم يحكى عن مواقف قابلها وشربها..محزون منـدمج مع شلة الأنس يحكى عن عروسه..الجنية التى تزوره قبل الفجـر ثـم تنسلخ عائدة قبل أن يشقشق النهار..مادة حديث لمسـاطيل بالبهـارات والفلفل وقرون الشطة دمور وقد لعب المخدر برأسه يسأل محزون :

قلتلنا إنها جنية !!

جنية بنت جنية .

الجرف يرد قائلاً :

أكيد حضنها مولع نار .

فهيم يلتقط الخيط :

كبريت أول ما تشكه يقيد .

محب هو الآخر مسترسلاً :

وللا يمكن وابور جاز تولعه يهبب .

دمور من جديد :

طيب إحكى لنا عن شكلها .

محزون منفعلاً :

هو أنا أقول طور تقولوا إحلبوه .. ما نظرتهاش يا خلق هوه .

على الأقل يبقى لك درإيه بكسمها .. بعودها .. برسمها .

زى الغزال ..

الجرف يتغنى :

زى الغزال يانا .

يستطرد متسائلاً :

لها رجلين .. أفخاذ .. صدر عندها اللى بالى بالك .

سكت محزون ربما خجلاً .. لكنه أحس بغصة .. مرارة .. كيـف يتحدثون عن محبوبته بهذه الصورة البذيئة ودمور من جديد :

عايزين نعرف إزاى نوم العفاريت على الواقف وللا على النايم .

يعنى إيه ؟! أنا مش فاهم منكم حاجة .

الجرف من جديد :

يا جماعة دا بيقول مش فاهم .

دمور بجدية :

يبقى كداب .

محب فى سخرية مريرة :

اللى أنا متأكد منه إنه بيحب جنية راسمها على الحيطة .. بالليـل والدنيا ضلمه ينزلها ينام معاها ويرجعها تانى مكانها قبل النهـار مـا يطلع .

الضحكات تتوالى ومحزون يحاول الدفاع عن نفسه :

أنا مش كداب !!

فهيم يتغنى :

لا أنا مش كداب هى اللى دخلت من الباب .

يتغنون ورائه :

لا أنا مش كداب .. هى اللى دخلت من الباب .

حل الصمت ودمور من جديد بخفة دم :

ما فيش مرة بستها ؟

كتير .

يا عينى والبوسة دى كانت ملهلبة؟!

فهيم من جديد :

نشوف شفايفه .

يلمس شفتا محزون .. يتمتم :

عليها وشم .. تبقى شفايفها سيخ محمى .

محب يتغنى وهو ينقر بإصبعيه على الطبلية :

سيخ محمى ورا الباب ميزو مش كداب .

يرددون خلفه :

سيخ محمى ورا الباب.. ميزو مش كداب .

رغم سطلة المخدر فقد إستطاع الثلاثة إستفزاز محزون .. قذفوا به إلى محرقة الشك فى نفسه.. وكان عليه حتى ينقذ نفسه منها أن يقـدم الدليل القاطع على صحة أقواله .. نهض من مكانه .. غادر .. وبعـد لحظات عاد وبين إصبعيه شعرة صفراء وهو يردد :

عشان تصدقونى .

ثوانى لكنها مرت على محب دهر كامـل وهـو يتأمـل الشـعرة الصفراء !!

(٢٩)

منتصف الليل ثلاثة ينتظرون .. محزون ومحب ونواره .. الوقـت يمر بطيئاً الساعة تحمل فوق عقاربها ثقلاً هـائلاً .. لكـل أسـبابه .. محزون فى انتظار معشوقته على إستعداد أن يصل الليل بالنهار مـن أجلها .. محب فى سريره ينتظر إرتحال نواره لحجرة محزون حتـى يتأكد من شكوكه .. أما نواره ففى لهفة لسماع شخير محب حتى تقـدم جسدها قرباناً لإله يجهلها .. فور أن تأكد لها إستغراقه فـى النـوم .. إنسلت من السرير مثل هرة تعرف طريقها.. هـدفها .. تسـللت إلـى غرفة محزون إنسلخت من ملبوسها .. إندست فى فرشـته .. أحـس بالسخونة .. تنبهت حواسه حاول أن يستدير نحوها .. حذرته قائلة :

إياك

قاطعها هامساً :

عارف ..عارف .

هذه المرة غمت عينيه بمنديل .. إستسلم لها وهى تهمس فى إذنه :

حتى لاترانى ولا تنظرنى .

إستدار نحوها .. متلهف عليها .. فى شوق إليها .. الرغبة طـائر يعربد داخله يريد إسكاته .. ضمها إلى صدره .. شـرارة تحتويـه .. ترجفه .. يغوص معها فى بحر بلا شاطئ .. ينهل منها وتنهـل منـه يتيهان .. يرحلان معاً إلى عالم علوى يقترب ـان مـن عـرش الإلـه الهدف..حتى يبصر بمخلوقاته فى قمة سعادتها..يبارك الخطيئة عنـدما تمجد الحب..الإنتشاء..الارتواء.فى لحظة سقطت كل الأقنعة ظهـرت

مــن خلفهــا الحقيقــة بكــل تشــوهاتها ومحــب يقــتحم الحجرة..الفجاءة..الصدمة ومحزون ينـتفض مفزوعـاً علـى رؤيـة نواره..يصرخ :

مين..نواره !!

فى الصباح كان يسير على شط المصرف حاملاً صرة ملابسه وهو يردد فى أسى :

الجنية طلعت نواره..نواره هى الجنية..الحقيقة نواره .

بداخله صراع محتدم..ندم شديد..عتاب مرير..كيـف حـدث هـذا ولماذا حدث ؟! لقد صدق قصة من نسج خياله..جنية تزوره قبل الفجر تمارس معه الحب ثم تقفل راجعة قبل طلوع الشمس..حلم ..مجرد حلم حوله لواقع ملموس..أى غباء هذا..كيف فات عليـه أن يفـرق بـين الحقيقة والخيال..كان يستطيع اكتشـاف هـذه الخدعـة لـو أعمـل عقله..لكنه منع نفسه من التفكير لإنه كان يريد ذلـك !! وهـذه هـى النتيجة منبوذاً متهماً بخيانة صـديقه .. تكـوم محـزون أمـام بـاب الخُص..كومة فقدت الإحساس بالزمان والمكان.. فى نفـس اللحظـة كانت تدور رحى معركة بين نواره ومحب..نواره تصرخ :

طلقنى ..طلقنى ياأخى..أنا مش طايقاك .

يرد عليها فى عناد :

على ذمتى زى البيت الوقف .

لإمتى..لغاية ما الناس تعرف حقيقتك .

حقيقة إيه يا بنت الموردى .

ثلاث سنين عايشه مع نص راجل .

مالى ؟!ناقص رجل..ناقص إيد..كسيب أطلع القرش من البلاعة .

عشان كده ..أخذتنى من أهلى شروة تتاجر فيها .

ليه يابت دا أنا مهننك ومأكلك وملبسك الغالى .

بفلوسى..كل سنة تبيعنى فدان .

لمى الموضوع يانواره وبلاش فضايح..عفا ا عما سلف .

لو عندك حبة كرامة طلقنى .

عشان تتجوزيه..لما تشوفى خرم ودنك .

سكت عاد مستطرداً :

عارفه أنا ساكت وراضى بزانية ليه !!

عشان قواد .

أنا قواد ياموس يا بنت الكلب .

كلب لما ينهشك ويقطع جتتك نساير .

حل الصمت..محب من جديد بنبرة هادئة تحمل فى طياتها التفاهم :

يابنت الناس خلينا نفتح صفحة جديدة .

بينى وبينك جدار .

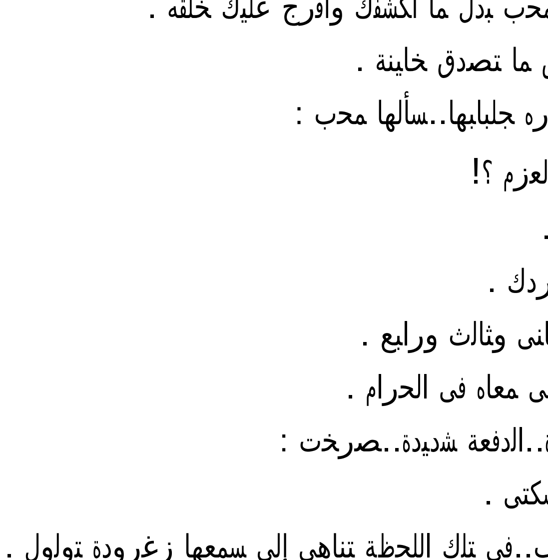
أنا بحبك يانواره .

وأنا بكرهك .

كفاية على أحبك .

نسيت إن أنا كنت فى حضن راجل غريب .

ربنا برئ ستنا عيشه .



طلقنى يا محب بدل ما أكشفك وأفرج عليك خلقه .

عمر الناس ما تصدق خاينة .

إرتدت نواره جلبابها..سألها محب :

على فين العزم ؟!

أتوسل له .

مسيره يطردك .

أرجع له تانى وثالث ورابع .

ناوية تعيشى معاه فى الحرام .

دفعته بشدة..الدفعة شديدة..صرخت :

إبعد عن سكتى .

فتحت الباب..فى تلك اللحظة تناهى إلى سمعها زغرودة تولول .

(٣٠)

هجرت نواره محب إلى بيت عائلتها..إجابتها خرساء عـن سـبب غضبتها..هى تريد الطلاق من محب..فاتحتها شقيقتها الكبرى "إنصاف" حتى تبوح لها بما يضنيها..رفضـت..بمـاذا تعتـرف إنهـا تحـب محزون..حتى لحظة هجرها البيت لم يكن أحـد يعـرف التراجيـديا الإنسانية التى تمت فصولها داخل حجرة الأرانب سوى محب ونـواره ومحزون إلى أن زارهم محب يطلب عودة زوجتـه رفضـت بشـدة وأصرت على الطلاق..بـدأت المشـكلة تطـل برأسـها الضـفدعى والمناقشات تعلو سقيفة البيت..الحدة طابعها.الإستنتاج الوحيـد الـذى توصلت اليه إنصاف..عقم محب..ثلاث سنين طوال عراض لم ينجـب خلالها قشاية..منطقة شائكة داستها بقولها :

روح لدكتور عالج نفسك .

رد عليها محب فى برود :

يمكن العيب من بنتكم .

لو العيب منها كنت خلفت قبل كده من النسوانتين اللى طلقتهم .

ياستى طلباتك أوامر أروح لدكتور .

ولغاية ما تتعالج بنتنا عندنا .

ليه كده ياست إنصاف..أنا محتاج مراتى .

الأرض كلها ألغام لا يستطيع مصارحة أهلها بالحقيقـة ..سـيرتد السهم إلى صدره. مجروح فى شرفه..مجنـى عليـه يطلـب مغفـرة

الجانى.رغم كل ما حدث فما زال يعشقها هى جزء من تكويناته..من نسيج حياته..هو ليس بعشق بل عبادة..هو نفسه لايعرف سبباً لهذا العشق وتلك العبادة..على استعداد للعفو عن أى خطيئة ترتكبها فالعابد لا يحاسب المعبود يكفى إنه يعبده..يكفى إنه يوافق على عبادته..لايطلب منها سوى العودة لبيته..لقد عاش الضياع والتمزق أثناء غيابها.. توارت البهجة التى كانت تضفيها ابتسامتها المشرقة.فى الجانب الآخر نواره .. لقد عثرت فى النهاية على العشق التائه..ليست على استعداد للتنازل عنه مهما كانت الأسباب خاصةً وإنها تحمل فى قلبها جنيناً يخص هذا العشق.. حب كانت ترنو اليه..حلم راودها وتحقق منذ أول مرة إلتقته..محب يبكى بين يديها يطلب الصفح والغفران..عن ماذا ؟! هى لاتدرى ما عاد شئ يربطها به..تقطعت كل الوشائج..تأزمت الأمور..إزدادت حرجاً..الفضيحة تدق الباب بعنف ونواره ترفض العودة لمحب بعد تزايد الضغط الأسموزى عليها من أبيها وأختها.. فجرت قنبلتها فى اعتراف قاتل..محب ليس برجل.. إعترافها هدم كل الأسوار.. لم تعد الفضيحة فى حاجة لدق الباب بعد أن إنفتح على مصراعيه..لم يعد أمام محب من وسيلة لاستعادة جزء ولو يسير من كرامته التى انسكبت على لسان نواره سوى أن يهاجم بكل شراسة بكلمات قاسية :

كل هذه الأكاذيب حتى تبررى خيانتك .

إنغلقت الأفواه..وسعت رقعة حدقات العيون حفها الإفراط فى الدهشة والتعجب.." إنصاف " ترد فى حدة :

إخرس قطع لسانك .

أنا كداب..إسأليها كانت بتعمل إيه مع محزون .

نكست نواره رأسها..واجهتها أختها بملامح وجه غاضب بسـؤال ..بكلمات حادة..فحيح ثعبان :

اللى بيقوله محب صح ؟؟

رفعت نواره رأسها..كلماتها مرتجفة :

أنا مطّلقة من محب .

إزاى .

قالتها إنصاف فى ريبة

أنا ست لى حقوقى تمام زى الراجل .

إنصاف من جديد أكثر دهشة :

وكنت عايشه معاه فى الحرام .

محب من جديد..السكين فى يده تقطر دماً..يريد أن يجهز بها على الفريسة :

كدابة ..بتبرر لكم الخيانة .

توالت عليها الأسئلة من أبوها وأختها..الإجابات غامضـة تحتمـل التأويل.. سؤال يلح على "علوانى" لايحتمل التأجيل.. دمدم به قائلاً :

ولما هى خانتك..جاى تصلحها ليه ؟!

لكن محب بخبرته كان مدركاً إحتمال طرح مثل هذا السؤال لهـذا أعد الإجابة :

إن ا ستار غفور رحيم !!

"شامخ" سمع آخر مقطع من اللحن المعزوف على ناى الخيانة..هال التراب على رأسه..لم يطهر التراب الوصمة التى لطخت شرفه..إستل سكيناً خبأها بين طيات ملابسه..رآه محب..رأى الغدر فى عينيه..تاجر مواشى..فاهم وعارف لغة العيون..شامخ صامت وهو يقترب من نواره ..لم ينطق بكلمة واحدة كأن الأمر لايعنيه..سحب السكين مـن طيـات ملابسه وقبل أن يهم بغرزها فى لحم أخته النئ..طوقه محب.. إرتدت السكينة إلى بطنه .. مزقت أحشائه ولولت الشـياطين فهـى لا تريـد للعشق طريق التضحية .

الأسعاف تحمل محب إلى مستشفى المركز..بكته نواره..ضحى من أجلها بحياته..إنتحر..فضل الموت على فراقها .

(٣١)

تماثل محب للشفاء..أتى لزيارته رهط من رجالات القريـة علـى رأسهم العمدة حبايب والشيخ زهرى يتمنون له إكتمال الشفاء ..علـى الشفاة أسئلة كثيرة حائرة إمتنع محب عن الإجابة عليها هـو يـرفض الخوض فى أموره الشخصية لذلك فقد أغلق الباب بالضبة والمفتـاح.. الشيخ زهرى غير راضى .. لايريد للأمور أن تسير على هذه الوتيرة لذلك حاول ان ينكئ جراح محب بفتح التحقيق الذى تم غلقه أمام وكيل النيابة بعد أن ذاعت القصة بتفاصيلها بعد تحويرها عرفها الصغير قبل الكبير.. محب لم يرتطم بآلة حادة كما جاء فى أقواله..شامخ هو الـذى طعنه لإنه خاض فى سيرة أخته.. الشيخ زهرى يواجهه فى حسم قائلاً:

الساكت عن الحق شيطان أخرس .

أى حق وأى شيطان ياشيخ زهرى .

أرى فى بيتك الفسق ومع ذلك لا تدفعه عن نفسك .

إتكلم عن نفسك يا شيخ زهرى..اللى على راسه بطحـة يحسـس عليها .

أراك عصى الكرامة شيمتك النذالة .

إحفظ لسانك يا شيخ زهرى..لسانك حصانك إن صنته صانك .

عامل فيها فنُط ومراتك مركبة لك قرون .

أنا محترمك عشان خاطر الناس اللى معاك .

لو كان كلامك صحيح والناس لها خاطر عندك طلق النجاسة..نظف بيتك من الوسخ.

بيتى أنظف من بيتك ..على الأقل .

قاطعه الشيخ زهرى قائلاً :

مراتك تخونك وأخوها يطعنك ومازلت تحميهم .

أما أنت يا أخى أمرك غريب..هو أنا بتدخل فى شئونك هـو أنـا سألتك عن العيال اللى بتحفظهم القرآن .

سامع ياعمدة تخاريف أخونا محب..هو حرام لمـا أحفّـظ الأولاد القرآن .

لا.. الحرام حاجة تانية..إنت عارفها وأنا كمان زيك ..تحب أقـول لك بالمفتشر وتبقى فضيحتك بجلاجل يابتاع العيال .

تدخل العمدة فى اللحظة التى إنفكت فيها حبال غضب الشيخ زهرى وهو يهب زاعقاً :

شوف الندل إبن الندل .

إهدى يا شيخ زهرى .

بعدها وجه حديثه لمحب قائلاً :

إسمع يا محب.. إنت ترفع دعوى زنا على مراتك وهتلاقى أكثـر من شاهد أولهم محزون..بكده نضرب عصفورين بحجر .

مين فينا ياعمدة .. أنا وللا أنت .

واحد يامحب..تريحنا منه سنة..إثنين ومعاه حبيبته .

عايزنى أسجن نواره ياعمدة..همه سموها نواره ليه..عشان منورة على دنيتى..إن ا غفور رحيم .

لأول مرة يتدخل "سنقر" شيخ البلد :

غفور رحيم لمين..للتائب !! .

رد عليه محب فى ضيق :

خليك بعيد يا سنقر..دا إنت بلاويك زاعقة .

"اللّى" هو الآخر يتداخل فى الحديث قائلاً :

العمدة عنده حق يامحب..أسجنها وأسجنه بكده نتقى شرهم .

محب من جديد فى حدة :

يا جماعة المسألة أعمق من كل كلمة سمعتها منكم .

الشيخ زهرى ضاحكاً :

قل لنا عن العمق ونزلنا معاك وللا أقولك نزلنا تحت العمق .

أنت بتنكت ياشيخ زهرى ؟

شر البلية ما يضحك .

العمدة من جديد فى حدة :

يا أخى..أنت جبله..مراتك تخونك ولآخر نفس بتدافع عنها وعـن شريكها أنت صنفك إيه ؟!.

محب يهمهم بوعى :

دلوقت أنا فهمت .

العمدة فى سخرية مريرة :

فهمت إيه وانت زى جحش عليقته كسب وردة .

إنت عايز إيه بالضبط ياعمدة ؟!

عايزك تعمل الصح .

إسمع ياعمدة..لو إنت صحيح عايز تسجن محزون عشـان تبعـده خالص عن سكتك شوف له تهمة تانية بعيدة عن نواره..شـيكارة ذرة وللا جاموسة .

كلامك هايف زيك..أنا كل اللى يهمنى مصلحتك .

ماتخليها على بلاطة ياعمدة من إمتى تهمك مصلحتى .

ياعبيط ماهى مصلحتنا واحدة..إنت تشفى غليلك وأنا أستريح مـن وجع الدماغ سنة وللا سنتين .

لو أقدر من غير ما مس شعرة فيها إيدى على كتفك .

سنقر من جديد فى حدة :

إيه حكايتك ولا كلمة عاجباك .

صح يا سنقر..ولا كلمة..وأن كنـتم خلصـتم كـل اللـى عنـدكم ..سيبونى أستريح .

فى لحظة مغادرة الرهط بيت محب وقبـل أن يتجـاوزوا البـاب الخارجى صبت نواره فوق رؤوسهم ماء غسول وصيحتها تسبقها :

شرفتونا يا محترمين .

(٣٢)

رموز خرجت من كفر المساعيد تسعى وراء السـلطة والمـال .. سقط أغلبها فى بئر العسل . "رامز" واحد من هذه الرمـوز .. خـرج لتلقى العلم فى الخارج وعاد يحمل الدكتوراه ليعمل مدرساً فى الجامعة .. حدد منذ البداية هدفه السلطة.. وكما هو الحال فى الـبلاد المتخلفـة يستطيع من خلال ممارستها أن يحصل علـى المـال . تـدرج فـى المناصب .. ولكن لم ينسى فى يوم من الأيام أن أقرانه دللـوه بلقـب "مزيكه" عندما كانوا يعزفون معه على وتر النشوة بين الحين والآخر!! دفعه ذلك للكفاح .. من حذاء إلى حذاء أكبر.. فالمناصب مثلهـا مثـل الأحذية ..فيها الغالى والرخيص فيها اللميع والمطفى .. فيها الأجلسيه والعادى .. ليس مهماً نوع الحذاء بل المهم من يلبسه .. رامز ارتـدى حذاءاً واسعاً عليه .. كان "بيلُق" عندما يسير به رغم هذا فقد كان يصر على ارتدائه فى الرايحه والجايه .. لذلك كانت نهايته مفجعة.. موظفة مزقت بكعب حذائها الألومنيوم نسيج رأسه.. وسال الدم على ملابسـه لتشهد نقاطه على الأسلوب الأمثل لرد الظلم .. ليس الظلم الواقع عليه بل الواقع عليها .. فعندما تتحدى السلطة إرادة الإنسان أن يبقـى حيـاً فعليه العوض ومنه العوض .. لقد حرمها هى وزملائها من مليمـات قليلة كانت تقيم بها أودها .. نواية لكنه استكثر علـيهم هـذه النوايـة وسلبها منهم فكانت هذه الحادثة .. كادت أن تقتله ..بل ربما قررت أن تقتله دفاعا عن نفسها فهو الآخر يريد قتلها جوعاً .. إنتهت الحادثة ولم

تعثر الشرطة على "فوزيه عرابى" .. بطلة مثل جدها .. كل مـا تـم العثور عليه أداة المعركة فردة الحذاء.. ورامز يصرخ فـى رئـيس الشرطة :

إذا كنتم فشلتم فى القبض عليها وتقديمها للمحاكمة فلـيس أمـامكم سوى فردة الحذاء عليكم بتقديمها للمحاكمة فلابد من جانى وهـذا هـو الجانى.

ورغم غرابة الطلب وفجاجته فكيف تحاكم الأداة التى أحدثت فـى رأسه تربنة إلا أن السلطة مفتاح العدل قدمت الحذاء للمحاكمة .. دهش القاضى ورامز يتصدى للمرافعة .. لقد أحدث هذا الحـذاء برأسـه عاهة مسـتديمة .. ولأن

الفاعل الأصلي هرب ولابد من تقديم متهم .. وهـذا هـو المـتهم أمامكم .. حاكموه .. لكن فليكن الحكم قاسى .. إننى أطالـب بإعـدام الحذاء كطلب أصلى أو تفكيكه كطلب احتيـاطي .. وحكـم القاضـى بوضع الحذاء فى المتحف الحربى بقصر محمد على كرمـز للنضـال ضد الظلم .

أصاب رامز الإحباط وبعد أيام وصلته رسالة مضمونها .. إستغنينا عن خدماتك .

ثانى هذه الرموز "عيسوى" خرج من كفر المسـاعيد طفـل فـى السادسة يطلب العلم فى المدينة هناك رأى السيارات والقطارات .. أول مره يستقل فيها القطار فاجأ "وجدى" أحد زملاء دراسته بسؤاله :

بياكل برسيم وللا فول ؟!

ضحك وجدى لغرابة السؤال .. أجاب فى دهشة :

لا برسيم ولا فول بياكل فحم .

لم يفهم .. لم يعى .. يعنى إيه قطر ياكـل فحـم .. وهـو الفحـم بيتهضم .

إنتقل فدوى بعد ذلك إلى القاهرة يدرس فى إحدى جامعاتها .. لـم يكن قد خطط بعد للمستقبل لكنه بعد انتهاء دراسته بدأ يحلل ويـدرس ليختار إحدى البدائل أمامه ليمضى فى الطريق .. لا يعلم أي طريـق يسلك العمل الحر أم الوظيفة واختار الوظيفة .. ظل ينتقل من حظيـرة إلى أخرى إلى أن استقر فى حظيرة كبيرة بداخلها كثير من الحيوانات الأليفة .. خرفان وماعز وفراخ وبط وأوز طعامها سكر وزيـت وأرز .. الحيوانات تأكل وهو يدخر روثها لوقت الحاجة .. فالزمن غـدار.. بعد سنين لاحت له فرخة تبيض ذهباً عضو فى مجلـس اللـوردات .. وظيفة يغسل بها أخطائه فى حق نفسه .. ولأنه لا معروف ولا معلـوم فقد تردد إلا أن الخراف مأمأت.. والفراخ كاكت .. "عايزين عيسوى.. عايزين عيسوى " وكان رشح نفسه لمجلس اللوردات وصـوتت كـل حيوانات الحظيرة الأليفة من خراف وماعز ودجاج وأوز وبط لصالحه فنجح نجاحاً منقطع النظير .. وبدأ عيسوى مشـواره الطويـل داخـل مجلس اللوردات سنين وسنين يحضر الاجتماعات دون أن ينطق بكلمة واحدة إلى أن تمرد واحد من الخرفان وأعلن العصيان وكشف ملعوب الروث .. ولما حدث هذا صدم عيسوى صدمة ألزمته الفـراش أيامـا وليالى بعد أن نطحه الخروف بقرنيه وأزاحه عن مكانه المفضل فـى مجلس اللوردات .. وانتقل الموضوع بعدها من سرداب إلى دهليز إلى

بهو يجلس فيه محققون وقضاه يسألوه عن مصدر الروث أجاب .. "هل فيكم أحد يرفض عطية ا .. الرفض معناه الكفر بـه .. " .. وحفـظ الموضوع إلى حين !!.

هذه بعض الرموز لكن أقواها وأشدها تأثيراً رمز النهيق .. فالناس هناك لاتتكلم إلا بالنهيق .. يصدر من الحلق مثل سـيمفونية أو لحـن بيانو .. أصبح علامة مميزة فى تاريخ هذا الكفر اللعين .. كل هذا من أجل عيون الحمار.. يدلـله الناس .. يسيرون فـى ركابـه يفلـوه .. يغسلوه بالشامبو .. يمتثلون له .. تعلموا منه البطء والكسـل والصـبر على الملمات التى تأتيهم من كل فج عميق .. ينهقون فـى حضـرته تشبهاً به حتى لقد فاز ناس كفر المساعيد بجائزة نهيـق برشـلونة .. إستطاعوا الفوز على حمير العالم الثالث فى النهيق الســوبرانو وبعـد فوزهم إستقبلهم الحمار قلدهم النياشين وسلمهم الجوائز .. وتيمناً بهـذا الفوز العظيم إفتتح المحافظ "فتحى صعب" ومعه أعضاء مجلس الشعب والشورى مدرسة سموها "مزيكة رامز" تيمناً باسـم رامـز الفخـرى أجزلوا لها العطاء والهبات وخصصوا لها دعما مادياً وأدبيـاً .. هـذه المدرسة تدرس كافة المواد بطريقه النهيق .. نهق إذاً فأنت موجـود . لذلك خرجت بنظريات جديدة عن نشأة الكـون وأساسـه وبداياتـه .. فالنهيق هو أساس الكون بالنهيق الأول نشأ وبالنهيق الأخيـر سـيزول تماماً .. وأصبح للنهيق فى كفر المساعيد نظريات لـيس فـى مجـال السياسة فحسب بل أيضاً فى مجال الاقتصاد والمجتمع فالسياسة تـدار عن طريق النهيق بدرجاته المختلفـة . النبـرة العاليـة والمتوسـطة

والمنخفضة . الغليظة والرفيعة أما الاقتصاد فينمو بالنهيق على مراحل بأسلوب الخص الخص الطرى ، ثم اللهف بأحـد مضـمون وأخيـراً الهرب بما خف حمله وغلا ثمنه .. ووصلت وزير التربيـة والتعلـيم أخبار النهيق فى مدرسة نهيق المساعيد فقرر إدخال منهج النهيق فـى كامل مراحل الدراسة إبتدائي وإعدادي وثانوى ولم يكتفى بـذلك بـل نصح شهاب الدين أزرط من أخيه الوزير الحائز على جائزة النوم فى العسل .. نصحه بإدخال أسلوب النهيق على كافة المواد التى تُدرس فى كليات العمة !! الطب والصيدلة والهندسة حيث يـدرس الطلبـة علـم الكفكفة والتعويم والدروشه .. الكفكفة أساسها إكفى على الخبر ماجور .. فالأخبار لاتسر عدو ولا حبيب بعد أن تحول التعليم إلى ماخور. أما التعويم فأساسه نظرية خف تعوم التى اتبعها الأسـاتذة وهـم يلقـون المحاضرات .. قشور لكن البهاريز يتم إدخارها لدروس الخصخصـة ..وأخيراً الدروشة تلك المادة الأثيرية التى يتم خلطها بالعلوم الحديثـة حتى تخرج للوجود خلطة مثالية تساعد الفقراء والمحتاجين وأصـحاب العاهات!! إقتنع شهاب الدين أزرط من أخيه .. هـذا هـو إسـمه .. بإدخال منهج النهيق على الدراسة فى كليات العمة .. والنتيجة عشـرة على عشرة !! إختلاط الحابل بالنابل.. فوضى عارمة.. انقلاب حـاد فى المفاهيم .. تدهور العقل الجماعى .. وهذا هو مرمـوز الحمـار.. سعى إليه وناضل من أجله .. فكلما ضعف العقـل وتاهـت المعـايير إرتفعت منزلة الحمار ولم يكتف الشهاب بكليات العمة بل قرر إدخـال هذا المنهج فى كليات الحقوق فأصبح النهيق سمة من سـمات دراسـة

القانون .. وانتقلت بدورها من حلقات الدرس إلـى حلقـات المحـاكم والمحامين يعتمدون على النهيق فى الدفاع عن مـوكليهم . وبالتـالى أصبح لكل نهيق ثمناً سواء فى المدارس أو الجامعات أو المحـاكم أو دور التعبد. وانتقلت عدوى النهيق إلى الصحف السيارة فبدأ التراشـق بالنهيق حتى أن رئيس تحرير إحدى الصحف القومية أخذ ينهق شـهراً كاملاً حتى بح صوته .. تحول النهيق من واقع خريطة الحيـاة إلـى شعارات يرفعها المرشحون فى امتحانات مجلس الشعب والشـورى !!

الحل هو النهيق المنقذ الوحيد للناس لما هـم فيه من عـذابات وفـقر مدقـع ..هـو البديل الوحـيد للخـروج من عـنق القـارورة الـذى بدأ يضـيق أكثر وأكثر .. بعـد كـل هـذا لـم يكـن غـريباً ولا شـاذاً نهـيق المطربين يتغزلون فى النهيق أساس الحـب العـذرى والجنس ففى غيبة النهـيق يعـجز الإنسـان عن الحب أو إتيان زوجته ..

تحول النهيق إلى وصفات جنسية تساعد الضعفاء فى الفراش .. بل قدمته إحدى المذيعات باعتباره أكلة شهية بالبصـل والثـوم.عشـرات الإعلانات تعلن عن نهيق العصير اللذيذ الطعم والمصنوع مـن نهيـق الجزر..أصبح النهيق عماد حياة الناس..حتى الأطفال الصغار تبحـث عن شيكالاتة النهيق..كل هذا بفضل أهل كفر المساعيد..وانتقل النهيـق إلى عيادات الأطفال والكبار باعتباره الدواء الشافى به يتداوى النـاس ينقذهم من أمراض الشيخوخة والعنةً..بات مثل ترياق..رحيق تمتصـه

العقول..عقيدة راسخة فى الأذهان..هو المخرج الوحيد للمستحيل الذى يعيشه الناس ليصبح ممكناً من خلال إيمانهم بالبعث والخلود والجنة !!

محزون لايؤمن لا بالنهيق ولا بالحمار لذلك فقد نبذه قومـه..فـى خصه يعيش معتزلاً الناس..يعد لنفسه الطعام ويغسل ملابسه ويرعـى شئونه..نواره لم تتخلى عن عشقها ولم تنسى حبها..لا تستطيع أن تقاوم هذا العشق الـذى مـلـك عليهـا حياتهـا هـى مائتـة إذا لـم تـرى معشوقها..حاولت أياماً وليالى أن تهمل عشقها..أن ترديه مقتولاً علـى عتبة زواجها بالهجر..بلا جدوى.. فهى متيمة به.. كل مافيهـا..كـل عضو فى جسدها يذكرها به..شفتاها التى تورمت من قبلاته..جسـدها الذى تعانق وجسده فى نشوة أنفها الذى ألف رائحتـه حتـى صـدرها المتوقد ناراً..لم تعد تطيق نفسها..ضاقت نفسها من نفسـها..تريـد أن تخرج منها..تثور عليها..تمزق إطارها ..ارتدت لباسها الأسود..أقلعت غير عابئة بصيحات محب "على فين يانواره "؟ إلى خصـه طرقـات على الباب..وأنفتح الباب..محزون أمامها.. هو الآخر يعشقها.. متلهف عليها..الجنية متجسدة فيها..الشوق والوله ودمـوع نـواره وحـروف كلماته تتأوه :

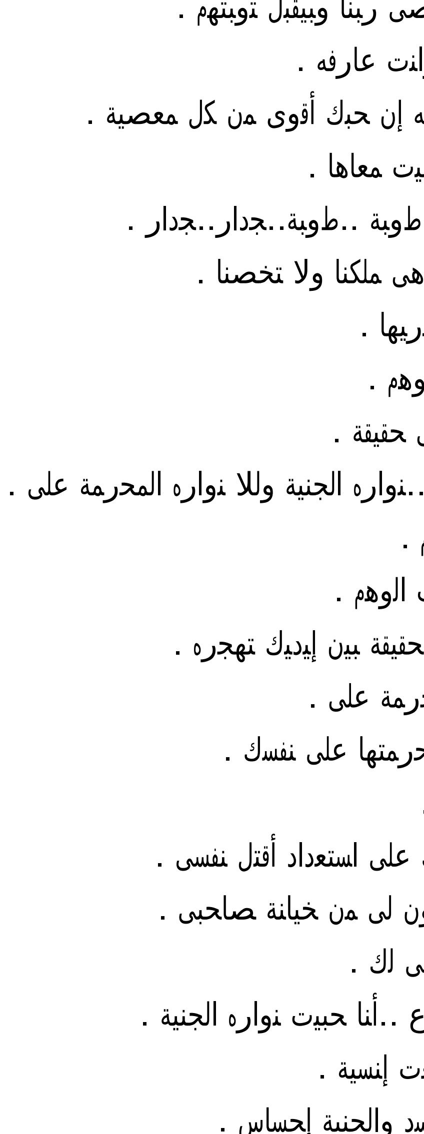
مشروخ قوى يانواره شرخ كبير .

سلامتك يا خوى .

حلم جميل صحانى منه ذنب كبير .

الحب يغفر كل الذنوب .

الخيانة فاقت ذنوبى كلها .


الناس بتعصى ربنا وبيقبل توبتهم .
عصيتيه وانت عارفه .
كنت عارفه إن حبك أقوى من كل معصية .
وهديتى البيت معاها .
نبنيه تانى طوبة ..طوبة..جدار..جدار .
الأرض لاهى ملكنا ولا تخصنا .
بالحب نشتريها .
حبى كان وهم .
والوهم بقى حقيقة .
أى حقيقة ..نواره الجنية وللا نواره المحرمة على .
الجنية وهم .
وانا عشقت الوهم .
ولما يبقى حقيقة بين إيديك تهجره .
الحقيقة محرمة على .
إنت اللى حرمتها على نفسك .
خدعتينى .
لأنى بحبك على استعداد أقتل نفسى .
الموت أهون لى من خيانة صاحبى .
طهرها حبى لك .
كدب..خداع ..أنا حبيت نواره الجنية .
الجنية طلعت إنسية .
الإنسية جسد والجنية إحساس .

الموت أهون عندى من هجرك .

الجنية خدت محزون معاها..مابقاش غير حطام .

ما كانش ممكن تحب نواره الإنسية إلا ما بعد ما بقت جنية .

حب محرم .

يطهره جوازنا .

(٣٣)

فرحة المحصول ومحزون يجمع ثمار الكوسة..يضعها فى "شـليته" على ظهر الحمار يتجه إلى السوق..يرص الثمار..منبوذ.. لا أحد يقدم على الشراء..كسدت بضاعته..عقيدة الناس فيه أقوى من رغبتهم فـى الشراء..فجأة دوى صوته منغماً.. مرتلاً :

بنصف ريال..بنصف ريال..العشرة بنصف ريال .

موازنة بسيطة بين العقيدة والمصلحة..حسـبة صـغيرة.. إنتهـت لصالح المصلحة والناس تتزاحم حوله تتكالب على بضـاعته..خـلال دقائق باع محزون " شليته " الكوسة..عاد من جديد إلى الحقل يقطـف ثمار الكوسة..يملأ بها الشليته يقفل عائداً إلى السوق..يتصايح :

بنصف ريال..بنصف ريال..العشرة بنصف ريال .

الناس تتكالب .. فجأة حط طائر جارح والشيخ زهرى يتقدم نحـو محزون..عمامته تهتز غضباً..يقف أمامه..يصرخ فيه متوعداً :

فاسق ليس لك مكان بيننا .

يتقدم خطوة أخرى نحو محزون يستطرد قائلاً :

توقف يا هذا !!

النـاس مدهوشـة..هـذا طلـب غريـب شـاذ يتعـارض مـع مصالحها..تكاثرت أعدادهم يطوقون الشيخ زهرى ومحـزون..ربمـا الفضول..ربما لسماع نهيق زهرى المحبب لنفوسهم وهـو يسـتطرد معنفاً إياهم بشدة :

مالكم تكالبتم على كتكالبكم على ذى نهاق..إفرنقعوا عنى .

الناس لم تغادر مكانها..تلك الكلمات كانـت دافعـاً لغيـرهم فـى الانضمام إليهم الشيخ زهرى من جديد يتوعد محزون بكلماته :

لملم الكوسة يا محزون وغادر السوق حتى لا يحدث لك مكروه .

محزون فى دهشة من أمر الرجل..فى تعجب لطلبه الغريب..سـأله فى عفوية :

ليه يا سيدنا .

منكر يا ابنى..منكر .

منكر !! أى منكر يا شيخ زهرى .

تلك الثمرات الخضراء .

تقصد الكوسة .

أى نعم الكوسة..شكلاً وموضوعاً.

أمسك محزون بواحدة..هزها هزات متواليات قال متهكماً :

يا سيدنا دى كوسة مش خمرة .

بل هى أشد وأنكى..الخمرة تذهب العقل لكن الكوسة تحض علـى الفسق .

فسق إيه ياشيخ زهرى .إنت كبرت وخرفت .

هل تجهل سبب تكالب النساء على شرائها .

كلمنى بالعربى وحياة والدك..اللى أنا أعرفه إنها كوسة..لا حشيش ولا أفيون أبوها كوسة وأمها كوسة .

فيها منافع ظاهرة ومنكر مستتر .

إحتدت المناقشة ..شهر الشيخ زهرى سلاح النهيق المقـدس ضـد محزون..إنضم للجمع الغفير "اللّى" و "سنقر" وبعض الخفراء يراقبـون الموقف ومحزون يرد على الشـيخ زهـرى فـى دهشـة ممزوجـة بالاستغراب :

أى منكر فى الكوسة يا مفتى الكفر ؟!

الشيخ زهرى يلتقط احدى الثمار يهزهزها فى يده..يتحسسها فـى بطء وهو يجرى راحة يده عليها فى فجاجة..يهمس ساخراً :

ألا يذكرك هذا بما فعلته مع نواره .

صحيح..رجل خسيس .

لأننى أمنعك من تحـريض القاصـرات علـى الفسـق والفجـور والشهوة .

خفيف ظلك يا شيخ زهرى وانت بتسمعنا بدل المواعظ نكت .

محزون يمسك بأكثر من ثمرة على التوالى..يقلبها فى يده..يصـيح فى حدة :

كوسة..كوسة ياسيدنا لا تنكمش بالبرودة ولا تتمدد بالحرارة .

ولو فهى تدفع الفتيات للشهوة والشهوة تؤدى للفاحشـة والفاحشـة تحرض على الفسق.

بعد أن أنهى كلماته..تقدم خطوة أخرى إلى الأمام..أصـبح داخـل حيز ثمار الكوسة المرصوصة بدأ فى هرسها صائحاً فى الناس بلهجة النهيق التى يخطب بها فى المسجد:

يا قوم..ياقوم..كل من داس كوساية وأتلفها تكتب لـه حسـنة فـى الآخرة..الثمرة قصادها حسنة..هيا..هيا..الكوساية بحسناية .

أشـبه بمـن يـوزع البركـات فـى الأضـرحة..أو صـكوك الغفران..صراع غير متكافئ بين بشر متخاف وبين فرد واحد يقـاوم بشراسة وعشرات يتطوعون للحصول على الحسنات بـاتلاف ثمـار الكوسة بلا أدنى شفقة أو رحمة..حلمهم الوحيد الحصول على تـذكرة فى الجنة بلكون أو بنوار !! .

(٣٤)

فى جلسته أمام الكوخ يفكر فيما آل إليه حاله..لقد إغتصب العمـدة بيته بالأمس القريب واليوم تم محاصرته فى لقمة عيشه..لمـاذا..مـا الجريمة التى إقترفها ؟!عليـه أن يعيـد حسـاباته فالـدائرة تضـيق حوله..راودته فكرة الرحيل لوطن آخر يرتحل إليه يجهل فيـه النـاس أمره..طرح الفكرة جانباً..أنه لم يعتدى على أحد..فكيف يكون جـزاءه معاناة الغربة والوحشة..أيام على هذه الحال من التفكير.. غصة فـى قلبه وهو يتأمل حقل الكوسة..نهض من مكانه..اليـوم الخمـيس..بـدأ يجمع ثمار الكوسة يضعها على ظهر الحمار فى الشليتة..يتجـه إلـى سوق "منطاى" أخذته الدهشة..فى انتظاره الشـيخ زهـرى بصـحبته سفروت خطيب جامع "منطاى" يفعلان معه نفس فعلـة سـوق كفـر المساعيد..يتلفون الكوسة..يضربوه ضرباً مبرحاً .

عاد مهمومـاً..خـالى الوفـاض مـرت أيـام..وثمـار الكوسـة تتضخم..تضخمت تغير شكلها الإنسيابى.. جمعها..رصها داخل الشليتة ..حملها على الحمار إلى السوق.. تقاطر عليه الخلق وهو يصيح :

العشرة بخمسة..الخمسة بعشرة .

تزاحموا..إشتدت حركة البيع..فجأة رآه أمامه..يهز رأسه من أعلى لأسفل..شئ ما ينكره..يرفضـه.. محـزون يلـتقط إحـدى الثمـار المنتفخة..يواجهه بقولته :

زى ما انت شايف لا تماثل ولا تشابه كما المرأة الحامل .

لقد قلتها بعظمة لسانك .

قلت إيه ياشيخ زهرى .. مرأة حامل وما أكثرها فى الشارع .

هذا ما دفعنى للحضور على ملا وشى .

خير ياسيدنا .. الغراب عمره مايزغرد .

أنا قلت عليك تبت وانصلح حالك لكن ديل الكلاب ما ينعدل حتى لو علقت فيه حجر .

ديل الكلاب هو لسانك ياشيخ زهرى..قطعه رحمة للعباد .

مآلك النار خالداً فيها أبداً أنت وعشيقتك نواره عندما تنتفخ بطنهـا وتأخذ شكل هذه الكوسة المنتفخة رمز للمعصية الكبرى ..لقائك المحرم معها .

لو قلت عليك خسيس يبقى شرف لك.. أبعد عنى قبـل مـا اقتلـك ياشيخ زهرى.

الشيخ زهرى لا يأبه لتهديده ..يدوس على ثمار الكوسـة بحذائـه يعوى صارخاً :

يامصيبتاه ..يا إسلاماه..ياوكستاه دوسو..دوسو..أدخلكم ا جناه .

الناس تحذو حذوه ..محزون يحاول دفع الأذى عـن ثمـاره بـلا جدوى..فعقيدة النهاق لدى الغوغـاء أقـوى بكثيـر مـن مفهومـات العقل..تدافع الناس بالعشرات لإتلاف الكوسة..تبارت أقدامهم وأيـاديهم لإتمام تلك المهمة المقدسة والشيخ زهرى يترنم بصوته الرخيم :

الثمرة بحسنة ..الحسنة بثمرة .

الناس خلفه تتغنى :

الكوسابة بحسناية ..والحسناية بكوساية .

(٣٥)

فى أحد شوارع كفر المساعيد سمع الناس "عيطة" المدروش وهـو يتغنى بصوته المبحوح :

الشيخ زهرى مقير ومحزون بيقور..الشيخ زمآن ومحزون فرحان وحبيبته عالشط قاعدة جنبه بتزغط البط .

لم تكن تلك الكلمات تخريفة من تخاريف عيطه المدروش ولا إحدى شطحاته فقد رأى الناس محزون وهو يقور الكوسة فى حقلـه ويقـذف باللبابة. أثار محزون حيرتهم فهو يواصل الليل بالنهـار فـى تقـوير الكوسة ..أكوام من الكوسة بجوارها جبل مـن اللبابـة..لمـاذا يفعـل ذلك..هل أصابه خبل عقلى وبالتالى يجب إيداعه السراى الصـفرا..أم أنها أوامر من الجن السفلى ينفذها محزون ربما تكون مقدمة لمـؤامرة على سكان كفر المساعيد ؟! السبب خفى..الوحيد الذى يعرف مبتـداه ومنتهاه محزون..إجتماع عاصف بين العمدة ومشـايخ البلـد والشـيخ زهرى..يحاولون من خلاله العثور على السبب الذى يـدعو محـزون لتقوير الكوسة..النقاش على أشده والاختلاف بين الأطراف حاد والنهاق بكافة درجاته..العمدة يقرأ الحاضر بعين السـلطة والمسـتقبل بعـين الخوف والشيخ زهرى له قراءة أخرى مختلفة تماماً..يـدعمها الـدين ويساندها النهاق لذلك أنهى العمدة النقاش بقوله الحاسم :

المايه تكدب الغطاس .. نسأله !!

(٣٦)

العمـدة والشـيخ زهـرى والمشـايخ فـى انتظـار تشـريف محزون..يضربون أخماساً فى أسداساً ..لقد تأخر قمحه وسفايه ..ربما رفض محزون أن يصحبهم ربمـا قـاومهم..أرسـل العمـدة"الضـو" لاستعجاله..إنفرجت أساريرهم والخفراء يدفعونه أمامهم بالتناوب ..فور دخولهم الدوار نهـض العمـدة لمصـافحته..رفـض محـزون اليـد الممدودة..صرخ فيه العمدة:

إترزى مكانك .

أنا مستريح وأنا واقف ياعمدة..خير..البيت واغتصبتوه والزرعـة أوقفتم حالها..باقى الفدانين اللى حيلتى..طلباتك ياعمدة .

لا فدانين ولا قيرا طين..الحكاية وما فيها إن الناس عايزه تعـرف إنت قاعد تقور الكوسة ليه ؟

بقى ساحبنى على ملا وشى بالبندق عشان سؤال هايف .

أنا هنا المسئول عن الأمن والنظام وأى إخـلال بـه لازم يواجـه بالحسم .

دخْل الأمن إيه بالتقوير ياعمدة ؟!

إنت كده بتتنقوز علينا .

رد عليه محزون ساخراً :

عشان بقور أبقى بتنقوز .

أيوه معناته إيه اللى إنت بتعمله بتقور الكوسة زى ما أحنا ما بنقور فى الناس .

صح يا عمدة أنت بتقور وتقشر وتقطع فى الناس لكن السبب حاجة ثانية خالص.

نورنا ربنا ينور دنيتك بنواره !!

قالها العمدة ساخراً .

أنا بقور الكوسة لأن عندى أوامر .

تبادل العمدة والشيخ زهرى النظرات والعمدة يسأله فـى فضـول معبق بالسخرية :

أوامر من الباب العالى ؟!.

الشيخ زهرى هو الآخر فى لهجة ساخرة :

أو من الجن السفلى ..أكيد من الجن السفلى..نفخ الأمر فيـه مـن تحت .

تضاحكت الجماعة على نكتة زهرى إلا أن محزون عاجله بكلماته القاسية :

طبعاً ما أنت واخد على كده ..قاعد تنفخ دروسك فى العيـال مـن تحت .

هب زهرى غاضباً :

سامع الفاسق يا عمدة .

العمدة من جديد فى لهجة آمرة :

ماسمعناش جوابك يا محزون .

ما أنا قلت ياعمدة أوامر على .

من مين ياجحش .

هو الجحش بياخد أوامره من مين ياعمدة .

ودا سؤال ..من صاحبه طبعاً .

الشيخ زهرى يتداخل فى الحديث مهدداً..متوعداً :

أنا قلت لك ياعمدة هذا رجل ألعبان لا يصلح معه غير السك على أم رأسه.

رد عليه محزون فى عصبية :

ناوى على إيه ياشيخ زهرى..هتتقتلنى وللا تقلع الزرعة وللا تحرق الخُص..كل اللى أنا عايز أعرفه..أنا عملت إيه..رفضت أصلى ورا راجل ضلالى بيستعمل العيال..رفضت أبيع بيتى لعمدة جشع..حاربتونى فى رزقى إستوليتم على المطرح اللى بتاوى فيه جتتى..قطعتم عنى المايه والنور مش ناقص غير تقلعونى لباسى .

حل الوجوم على القوم..حلقت على رؤوسهم الطير الأبابيل ترميهم بكلمات من سجيل..عبق الصمت المضنى المكان ومحزون يستطرد قائلاً :

عارف ياعمدة إنت والشيخ زهرى موقعكم إيه فى الكفر.. ضلعين فى مثلث خيبان الناس قاعدته..عاجزة..مشلولة..مسلوبة الإرادة .

محزون يستدير..يتجه للخروج مستطرداً قائلاً :

عن أذنكم إلا إذا كان لكم معايا تصاريف ثانية .

حاول سفايه حجب جسده إلا أن العمدة تمتم بصوت خافت :

سيبه يروح لحاله .

عند إنصرافه إلى حقله زفه طائر الإنتصار..لقد ألجمهم..أخـرس ألسنتهم. فى طريقه إلى خصه أنغام المرح والسعادة تصدح داخله..إنه يخوض معهم معركة سينتصر فيها إن عاجلاً أو آجلاً..تفكر..حتى الآن لا يعرف السبب الذى دفعه لتقوير الكوسة..ربما نوع من التمرد علـى النهاق..ربما كما فسرها البعض بلاغ للناس بما يفعله العمدة معهـم.. يستعمل السلطة فى تقوير دواخلهـم لا يتـرك لهـم سـوى غـلاف خارجى..يحملون صورة النسر لكن دواخلهم خربة..مسلوبة..منهوبة .. مبعثرة.

عاد محزون إلى حقله..كم هو سعيد وهو يمسك بالقوارة..يعمل بجد واجتهاد..أكوام من اللبابة تتراكم.. نواره لا تفهم..تريد أن تفهم..كل ما يفعله محزون يكلله الغموض ..رغم ذلك جلست قبالته تسـاعده..لأول مرة تزف عيناها فرحة تشى ملامحه ..السبب لا تعرفه.. لقـد تحـول العبث اللا مفهوم بتقوير ثمار الكوسة إلى معنى ومغزى التمرد .

غامت السماء..المطر قريب..سحابة بيضاء كثيفـة تعلـو سـقيفة الفضاء .. تقترب..السحابة تتفتت..تتناثر..إحتوتهما الدهشة ..هالتهمـا الرؤيا..السحابة ليست سوى قطيع أوز يحط على الحقل الواحـد تلـو الآخر حماس محزون يتزايـد وهـو يقـور الكوسـة والأوز يلـتقط اللبابة..تساعده نـواره ..هلـت عليهمـا أطيـاف السـعادة..نـواره تزغرد..محزون يتصايح :

يامأ أنت كريم يارب .

فى صباح اليوم التالى كان عيطه المدروش يتغنى فى الشارع :

غيط محزون مليان بالوز والشيخ زهرى فى زلعة مش بينز .

(٣٧)

أتاه الشيخ زهرى..محزون أمام الحقل يقور الكوسة..اللون الأبيض يغرق كل شبر فى الأرض الخضراء..الشيخ زهرى يتأمل قطيع الأوز ..مبهور..ثروة وأى ثروة..تحسر..عبر عن حسرته بكلمات مبهمة :

جميل الأوز..الأوز جميل .

محزون فى انتظار الإفصاح عن غرض الزيارة المفـاجئ..طـال الوقت..بادره قائلاً:

خير يا شيخ زهرى .

الشيخ زهرى يشير بإصبعه على قطيع الأوز يتمتم :

الأوز يشرح القلب .

محزون ليس ساذجاً ولاعبيطاً..واجهه بقولته الساخرة :

تاعب نفسك فى القيالة عشان تتغزل فى الوز .

لاتسئ الظن بى يامحزون ..صبرك بنا ..نشرب الشاى ونتكلم .

محزون يقدم له كوب الشاى يهمهم :

بعد ما تطفحه تورينى عرض إكتافك .

والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .

الشيخ زهرى يرتشف الشاى بتأنى..محزون يرد عليه فى حزم :

طلباتك يامولانا ؟!

الخير لك ولكل الناس !!

إزاى وإنت قافل على ضلفها .

لأنى منعتك من ارتكاب معصية ..خلاص ربنا عوضك .

ياشيخ زهرى خاص .. طلباتك .

رزق بعث به ربنا..نقسمه بالعدل .

أى رزق يامولانا .

الشيخ زهرى يشير بيده إلى قطيع الأوز..يتمتم بحسرة :

كل هذا ملك ا   سبحانه وتعالى .

ملك ربنا..ملك العفاريت الزرق دخلك إنت إيه!

ونصيب الناس الغلابه فيه .

معاك توكيل عنهم ياشيخ مبخت .

وموثق من ربنا .

طلبك مرفوض يامولانا .

الناس لن يعجبهم ردك .

عايز الناس تاكل فسق وحرام..نسيت يامولانا .

أنا لم أحرم الوز .

لكن حرمت الكوسة وبما أن الوز أكل كوسة يبقى زيها رجس مـن عمل الشيطان.

هذه نقرة وتلك نقرة .

الخلاصة يا شيخ زهرى .

الناس تشاركك بنصيب فى رزق ربنا .

الوز عندى وديعة لغاية ما يبان له جناح فى السما .

أنانية منك أن تستأثر لوحدك بالغنيمة دون الناس أم أخالك تقـدس الأوز كما يفعل أخوتك الهندوس مع البقر .

فاض الكيل..تفجر الموقـف..أمسـك محـزون بتلابيـب الشـيخ زهرى..فى أحلك ساعات الغضب وهو يسـحبه علـى الأرض..الأوز ينقر إليته..يصل به لجسر المصرف..يدمدم وهو يشير للماء:

المرة الجاية دفنتك هنا فى البدروم..تحت المايه .

(٣٨)

في قرية كفر المساعيد..الناس صامتون..صامدون..صاغرون..كله على وزن حرف "الصاد" لا يأبهون لا يهتمون إلا بلقمة العيش..يبحثون عنها فى أى مكان حتى ولو كانت فى قمامة الأثرياء..لا يحركهم سوى غريزة البحث عن الطعام..على استعداد للنزال والقتال ضد أى شخص يمنع عنهم قوت يومهم تحولت علاقتهم بمحزون من إعجاب إلى عداء سافر لأنه رفض أن يقاسموه الرزق الوفير بعضهم لم يذق اللحم منـذ شهور..والبعض الآخر نسى طعمه تماماً منذ سنين لذلك فالكل يهفو إلى ورك أوزة أو صدر أو حتى جناح..أصابتهم حمـى الجـوع والشـيخ زهرى يخطب فيهم يوم الجمعة خطبة عصماء يتحدث فيها بنهاق عالى الوطيس عن أوز ا   فى أرض محزون وحق الناس الإلهي فيه..ألهب المشاعر..دفع الناس للتظاهر وهم يحملون صورة لمحزون على هيئـة حمار وصورة أخرى لأوزة..فى الجـرن الشـرقى أحرقـوا صـورة محزون إستكملوا بعدها مسيرتهم وهم يرفعون صورة الأوزة..يهتفـون "الوز..الوز..ولاشئ يعلو الوز".."يعيش الوز بخلطة الـرز".. "يسـقط محزون عدوالناس المجنون".. "شوربة الوز أطعم من لبن البز" .

وانتهت المسيرة فى دوار العمدة حيث عقد فـى الصـالة العلويـة "مؤتمر أوز الرحمن" تبارى فيه المثقفون فى إلقاء الخطب الرنانة حول فوائد الأوز الخمسة..اللحم..الريش..البيض..المخلفات..الزلمكه.. وكان أبرز المتحدثين باسم نصفه وسيد احمد معطى تبارى الإثنان فى تناول

هذه الفوائد بالشرح والتحليل حتى جرى ريق الخلق وهم يتكلمون عـن الطريقة المثلى لطهو الأوز..وتحميره وحشوه بل وحرص كل منهمـا فى عقيدة الناس النهاق..حقهم المعلوم الثابت الشرعى فى هـذه الهبـة الإلهية وانتهى المؤتمر بإعلان هام وعاجل..تحديـد سـاعة الصـفر السادسة مساء للاستيلاء على القطيع .

فى المساء تدفقت جموع حاشدة إلى حقل محزون..الكل يسعى إلى النهب والسلب تساندهم فتوى شرعية حصنها قرار من السـلطة.الأوز هاجع فى الحقل يحلم بإشراقة شـمس الصـباح ومحـزون مشـغول بالتقوير..يقذف باللبابة يقطع الثمار..فرحة تعبق عليه كيانه وهو منهمك فى العمل..لم يضع مجهوده سدى.. فجأة حـط عليـه طـائر الـرخ والغوغاء يقتحمون حقله..يدنسون أرضه..هجوم التتار.

تدافعت أمواجهم..لهم غاية محددة..السـطو علـى قطيـع الأوز.. محزون يقاومهم بعصا شوم لكن هذه هى سنة الحياة..القوة الغاشمة لها اليد العليا..مصير محزون معلق بين أيادى العنف..يقيدوه..يقذفون بـه مثل جوال بطاطس بجوار الكوخ وتتم عملية السطو المنظم بالشـباك والأيادى على الأوز وفراخه وبيضه..يحرقون الكوخ قبـل مغـادرتهم الحقل..بعدها كان مشهد المذبحة كالآتى..الأرض الآمنة تحولت إلـى فوضى عارمة.. زرعة الكوسة أتلفت عن آخرها..النار مشـتعلة فـى الكوخ..على بعد قليل.. محزون مقيد بإحدى قـوائم الكـوخ..يحـاول الفكاك والنار تقترب منه..بينه وبين الموت دقائق ونواره تسرع إلـى الحقل..صرخاتها تسبقها بعد أن سرت أشاعة أن محزون إحترق داخل كوخه..فكت وثاقه ..بكت على صدره .

(٣٩)

فى المحكمة..على المنصة القاضى يجلس متربعـاً علـى عرشـه الإلهي بجواره وكيل النيابة والكاتب..القاعـة مكتظـة علـى آخرهـا بالناس..الحاجب ينادى على الخصوم بصوته الأجش..محزون يجلـس فى الصفوف الخلفية بجواره بعض أصدقائه "التابعى" و"دمور" و"عيطه المدروش" و"بلاص" و"سبع البرمبة"..الصمت يحمحم علـى القاعـة.. القاضى يستمع لدفاع المحامين..غز دمور محزون بيده..همـس فـى أذنه :

بص للباب .

العمدة وطلايله والأهالى يدخلون القاعة..يجلسون على الدكة خلف محزون..محزون يساوره القلـق..حتـى الآن لـم يحضـر "شـفيع" المحامى..لعب الفار فى عبه والعمدة يهمس فى أذنه ساخراً:

إبقى إترافع إنت .

الحاجب ينادى :

محزون عمر .

رأى الناس منظراً عجباً وشفيع يدخل القاعة يرتدى روب المحاماة مقلوب..يسرع إلى المنصة يتمتم :

حاضر عن المدعى .

القاضى يغرقه داخل نظرات الدهشة..صوته مندى بالغضب :

هندم نفسك يا أستاذ .

القاعة تضج بالضحك..وشفيع يسأل القاضى فى تعالى :

إيه المشكلة ياسيادة الرئيس .

يا أستاذ إنت لابس الروب مقلوب .

ما أنا عارف .

أنا ممكن أحبسك لازدراءك المحكمة .

سيادة الرئيس ملابسات القضية تستلزم منى لبس الروب مقلوب .

القاضى يطالع القضية بسرعة .. يصيح غاضباً :

القضية لافيها روب ولا بيجامه .

شفيع يمد يده نحو القاضى يسترسل قائلاً :

بدايةً..لو سمح لى سيادة الرئيس بساعته !! .

ساعتى ؟!

أجاب القاضى فى دهشة .

نعم سيادة الرئيس ..ساعتك .

أنت بتلاعبنى حاورينى يا قطيطة .

مع احترامي الشديد لهيئة المحكمة الموقرة فأنا أطلب الساعة حتى أبنى عليها دفاعى فى موضوع الدعوى .

القاضى فى دهشة :

وهى ساعتى ثابتة فى أوراق الدعوى عشان تبنى عليها دفاعك .

بمجرد ما استلمها من سيادتك حتبقى دليل قوى فى الدعوى هى والروب المقلوب .

القاضى يتملكه فضول جارف..المحامى يتبع أسـلوباً جديـداً فـى الدفاع لم يألفه إما أن ينجح فيه المحـامى أو يحبسـه بتهمـة إزدراء المحكمة..القاضى يخلع ساعته شفيع يلتقطها..يتأملها يهمس :

رولكس .

يستطرد قائلاً :

هى الساعة كام دلوقت ياسيادة الرئيس .

الأنظار كلها تتجه إلى الساعة المعلقة على الحائط وشـفيع يضـع ساعة القاضى فى جيبـه..يسـرع للهـرب مـن القاعـة..القاضـى يقف..منزعجاً يصيح فى الحرس :

امسكوه..امسكو الحرامى .

واحد من الحرس يقبض على شفيع..يعيده إلى القاعة..يجره إلـى منصة القضاء..القاضى فى ضيق مكتوم :

هو لعب عيال..هات الساعة.

ياسيادة الرئيس الساعة أنا تبرعت بيها لفعل خير .

صاح القاضى فى غضب جامح :

إنت بتستهبل ..طلع الساعة .

غداً تكتب لك حسنات .

ولا حسنات ولا سيئات..الساعة وللا أحبسك .

ياسيادة الرئيس دا مشروع خيرى مساهمة منك فى بناية جامع .

بالغصب .. بالاكراه..لا قانون ولا دين ..فتشوه .

فى تلك اللحظة يخلع شفيع الروب يعيد إرتدائه .. يسـلم القاضـى الساعة يتمتم بنبرة يعبقها بهجة الانتصار :

خلاص سيادة الرئيس أنا أنهيت مرافعتى .
رد القاضى فى دهشة ممزوجة بالتعجب :
أى مرافعة..هى المحكمة سمعت كلمة واحدة عن الموضوع .
بعد ما سيادتكم تقرا القضية سيتأكد لكم بما لايدع مجالاً للشك أن ما حدث فى المحكمة الآن هو جوهر مرافعتى .
رد القاضى فى تبرم :
آخر الجلسة .

(٤٠)

الناس تحكى وتتحاكى عـن ليلـة الأوز كيـف أمسـت وكيـف أصبحت..كانت ليلة مشهودة فلأول مرة فى تاريخ كفر المسـاعيد لـم يخلو بيتا من رائحة حساء الزفر..الرجال سعداء تعبقهم البهجة والنساء لا تفارقهن فى الصباح البسمة..الجميع يتحدث عن مغامرات الفـراش الليلة الفائته..كيف كانت وكيف أصبحت..يتفاكهون يتندرون..يـأملون أن تتكرر فى القريب العاجل..يتناولون التفاصيل المثيرة المشوقة..لقـد كانت ليلة حظ وفرفشة ودندشة ونعنشة..من فشل وخاب فى تلك الليلة فقد تم إسقاطه نهائياً من غربال الرجولة..ومن نجح فهو يسير منتفخـاً كالطاووس أصبحت هذه الليلة فى منزلة ليلة القدر بل تفوقهـا..ففيهـا حقق الجميع أمنيات غالية ما كانت لتتحقق حتى فى ليلة القدر..بل لقـد اعتبروا قطيع الوز هدية من الرحمن ليسعدهم ويثيبهم علـى أعمـالهم الطيبة ..بعد أن ذهبت السكرة وبقيت الفكرة..الوز وفوائـده وطـرق صيده..إ نعقد مؤتمر مصغّر ماذا بعد أكل الوز ضم العمـدة وبعـض مشايخ البلد والأعيان "سنقر" والشـيخ "عبدالشـكور" مـأذون القريـة "وعبدالرحيم شفه" نائب العمدة ويوسف فله المساعد "وشرحه" مستشار العمدة لشئون الهيصه "وعاطف بيظ" مستشار رفع ضغط الدم..إنعقـد المؤتمر لمناقشة المرحلة التالية لهذه الليلة التى كتبـت بحـروف مـن النشوة فى صحائف التاريخ..بدأ العمدة يعرض إقتراحاً على المـؤتمر يتلخص فى أن زراعة الكوسة على أكبـر مسـاحة ممكنـة وبأحـد

مضمون عمل يستوجبه الصالح العام لأول مرة يعارضه الشيخ زهرى :

زرعة مدنسة ياعمدة .

ضاق العمدة بالشيخ زهرى وبتعليقه فهو لا يطيق معارضـة أحـد حتى ولو كانت الرأس تكللها العمامة لهذا صرخ فيه بحدة :

إنت صدقت نفسك يا شيخ زهرى..يعملوها ويخيلوا .

كلمات مثل طلقات الرصاص رغم هذا فقد رد عليه الشيخ زهـرى فى تأنى وبثقة العالم ببواطن الأمور :

حرام ثم حرام ثم حرام .

العمدة من جديد محتجاً :

حرمت عليك عيشتك دا احنا لسه دفنينه سوا .

سنقر يتداخل فى الحديث بكلمات مهدئة..فما أشق على النفس مـن صراع السلطة مع السبحة :

يا شيخ زهرى الناس لا هتشترى ولا هتبيع فين هو الحرام !!.

الشيخ زهرى فى دهشة..إنه يسمع كلاماً غريبـاً..فمـا معنـى أن تزرع الناس كوسة لاتباع ولا تشترى..عبر عن دهشـته فـى سـؤاله المستفز :

لا بيع ولا شراء..ما مصير الكوسة إذن..الناس تلبسها ؟!

رد عليه "اللّى" قائلاً :

تزرع وتقور .

عبدالرحيم شفة يكمل قائلاً :

وتنتظر الوز .

فهم الشيخ زهرى أخيراً مرمى الحديث..علق قائلاً :

إفرض..إفرض !!

رد عليه يوسف فلّه فى ثقة مفعمة بالساطة :

فرض غبى..الوز جاى..جاى.

عبدالشكور يمسك الخيط بقوله :

ولما الخير يعم على الناس نكتب الكتاب ونعلى الجـواب ..علـى بركة ا ياعمدة..نزرع ونقور .

وحتى لاتتصادم المسبحة مع السلطة وتنفرط حباتها..وحتى تحتفظ بمسحة من الكرامة سأل العمدة المستشار "شرحه" فى تحفظ :

وإنت ما رأيك ؟!

فى إيه..ما أنت عارف البير وغطاه !!

أنا قصدى مسألة الزرع والتقوير .

طالما إنت إقترحت يبقى أكيد درست وخططت وعارف أكثر مـن أى واحد فينا .

العمدة من جديد يسأل عاطف بيظ :

ورأى البيظ ؟

رد عاطف بيظ فى ثقة :

- ننشئ بنك يمول المشروع وبعدين نسرقه !!

الشيخ زهرى يتراجع تسعين درجة وهو يتمتم :

اذا كان هذا كذلك..إذن فالضرورات تبيح المحظورات .

(٤١)

صدر الحكم بأحقية محزون فى بيته..قاضى شجاع..لم يهاب العمدة ولا سلطته ولا المشايخ..دوى هائل للحكم فقد أدان غصـب السـلطة المتدثر بعباءة الدين وشدد على أن الغصب لا تطهره شعائر الدين ولا ممارسات السلطة..بعد صدور الحكم اهتزت دعائم العمدية فقد تلقـت الضربة فى عمودها الفقرى وربما تكون هذه الضربة بدايـة الانتقـال لمرحلة تسود فيها فوضى يصعب السيطرة عليها العمدة فـى حـيص بيص فالحكم مشمول بالنفاذ المعجل..أيـام ويـأتى المحضـر لتنفيـذ الحكم..لقد تعرض القاضى لضغوط هائلة حتى لا يصدر حكماً يتحول إلى سابقة خطيرة تحصد كل مكاسب السلطة..أو يصبح إسفيناً يفـرق بين سبحة الشيخ زهرى وعصا العمدة..توأمان فى رحم واحـد إسـمه التخلف..إنفصامهما يعنى إحداث تغيير شامل لأهالى كفر المساعيد..من الكبت إلى الحرية..من الفقر والحرمان لحياة كريمة .

أرسل العمدة فى طلب الشيخ زهرى..ربما يساعده فى الخروج من عنق الزجاجة.. العمدة مع أعوانه فى اجتماع عاصف تتباين فيه الآراء .. سنقر أحد الصقور يطلب من العمدة مواصلة الضغط على محـزون بتهديده حتى لو أدى الأمر لتصفيته جسدياً وعاطف بيظ يقترح مساومة محزون بتعيينه رئيساً لفرع الصندوق الإجتماعى بالقرية لكن يوسـف فلّه أصر على أن منظومة محزون هى لب المشكلة ولا علاج لهـا إلا بقرصة ذبابة تِنسى تهمده وتنسيه إسمه ..أما شرحه فله رأى آخر تماماً ..إحتفالية يدعى لها الكبار تسيل فيها الخمر أنهار وترقص فيهـا

النساء عرايا دون حجاب تنتهى بمناشدة لوقف الحكـم الجبـار لكـن عبدالرحيم شفة فيرى أن الطريق الوحيد للخروج مـن المـأزق هـو إقراض محزون قرشين يسأسأ بيهم ويبنى إسـطبل للحميـر..الشـيخ زهرى ينفجر غاضباً :

ثانى..نتعامل مع هذا الفاسق ثانى..إنها خطيئة كبرى ؟!

العمدة يعقب قائلاً :

دلنا إذن على الصواب .

حمدى بسبوسـه عضـو مجلـس الشـعب لنـا عليـه أفضـالاً كثيرة..رشحناه ودعمناه ونجحناه .

(٤٢)

أتته نواره على لسانها زغرودة تترنم بها..لقد طلقها محب..مفاجأة هزت محزون إستخفه الفرح..بدأ يردد بلا وعى وهو يتراقص :

رجعت نواره لحبيبها ميزو.. وميزو رجع لحبيبته نواره !!.

نواره تنظر إليه فى دهشة..تملأ منه عينيها تهمهم :

كل العشق دا وأنا معرفش .

محزون أطلق بفرحته مشاعرها المكبوتة..فاضت شطئان رغبتهـا لقد تأكد لها أن نواره الجنية إختفت من حياته وأنه يعشقها هى ..يعشق الإنسية..إحتوته فى أحضـانها..إصـطكت أسـنانه بأسـنانها وهـى تقبله..اليوم هى تريده..أن تنام برأسها فوق صدره العارى ..أن ترحل إلى نهره المتدفق تروى عطشها..أمنيات لابد من تحقيقها .

نواره تسحبه مـن يـده إلـى داخـل الخُـص..مستسـلم لكنـه يعاند..يكابر..هى تحرض فيه عشقه بصـدرها المتوثـب..برغبتهـا الجامحة..هو الآخر يرغبها..يريدها ربما أكثـر مـن رغبتهـا لكنـه متردد..خائف..يهمس لها :

حرام نغضب ربنا .

حضن منك يغفر كل ذنوبنا .

الحضن يقلب .

ما يقلب.

تقبل قفاه..تتحسسه فى رفق..تهمس فى أنوثة :

قفاك شتمنى !!

أدبيه .

تقبله..القبلات تشى بالرغبة..بالنشوة..محزون يبتعد عنها قليلاً يتمتم :

فرهدتينى .

أنا مش قادرة أستنى أكثر من كده .

و أنا.. لكن العمل إيه .

روح هات المأذون حالاً يعقد علينا .

يعقد علينا ؟! .

قالها فى دهشة ..إستطرد بعدها قائلاً :

والِعدة ؟!

راحت من جديد تقبله..تهمس من جديد :

لو ماقفلتش باب الخُص ها انتحر .

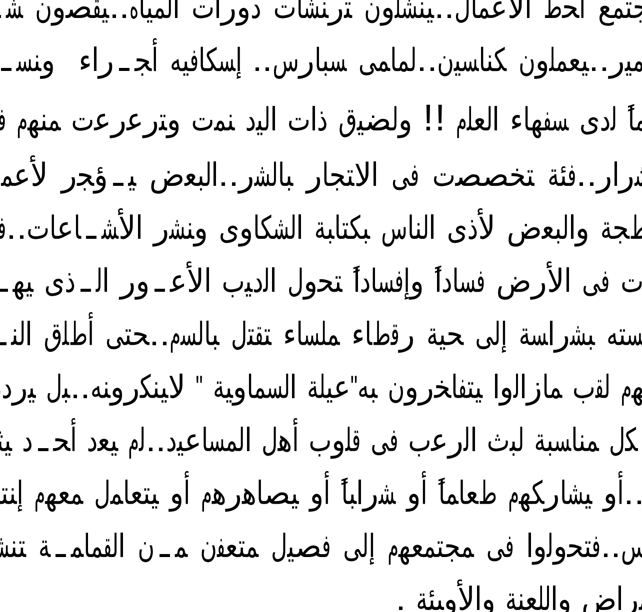
رد فى إستسلام غريب :

وإلاقى فين نواره تانية تنور علّى حياتى .

(٤٣)

الناس فى كفر المساعيد تروح وتجئ دون أن تعرف لماذا.. المهـم أنهم يروحون ويجيئون..يأكلون ويشربون دون أن يخطر ببالهم أنهـم بالطعام يبقون على قيد الحياة المهم أنهم يأكلون..يتزوجون ويتناسـلون ولكنهم لا يدركون لماذا.. المهم أنهم يتزوجون ويتناسلون..الناس فـى الكفر لا يحفظون تاريخهم جيداً..ربما يحاولون نسيانه فأصـلهم ديـب أعور.. قاطع طريق أرهب الناس..سلب

أرضهم ونسائهم وضميرهم وأذلهم..كان يسلب من الناس أرضـهم بأسلوب الذئب..الإمساك برقبة الفريسة ثم الضغط عليها بالأنياب حتى يمنع عنها الهواء فتختنق وتسقط ضحية له..كان يركز على رقبة الناس نقطةضعفهم..العرض.الشرف..الحاجة..العوز..الخوف..الرعب..الرهب ة إلى أن تستسلم الضحية بعد أن تعجز عن التنفس..أول سقوط لـديب كانت سقطة العزب آمين وأحد خدمه المقربين يخـرج إلـى شـوارع القرية متصايحاً وقد شق جلبابه بعد أن ضـبط زوجتـه عاريـة فـى أحضان سيدها..وتوالت النكبات على الأسرة الديبيـة بعـد أن أداروا ظهرهم للعلم..فالعلم فقط لأولاد السفهاء أما الاثريـاء فلـديهم المـال والسلطة والجاه..منذ هذه اللحظة..لحظة مخاصمة العلم بـدأ الانهيـار وهم يبيعون أملاكهم فدان ورا فدان..وتحولوا بالتالى من سادة بعـد أن فقدوا المال والسلطة إلى مناظر خاوية خالية لا تجد قوت يومها..ورثت للأحفاد الفقر والحقد والكراهية..وحتى تنتظم حياتهم إمتهنوا ما يعتبره



المجتمع أحط الأعمال..ينشلون ترنشات دورات المياه..يقصون شـعر الحمير..يعملون كناسين..لمامى سبارس.. إسكافيه أجـراء ونسـائهم خدماً لدى سفهاء العالم !! ولضيق ذات اليد نمت وترعرعت منهم فئـة الأشرار..فئة تخصصت فى الاتجار بالشر..البعض يـؤجر لأعمـال الباطجة والبعض لأذى الناس بكتابة الشكاوى ونشر الأشـاعات..فئـة عاثت فى الأرض فساداً وإفساداً تحول الديب الأعـور الـذى يهـاجم فريسته بشراسة إلى حية رقطاء ملساء تقتل بالسم..حتى أطلق النـاس عليهم لقب مازالوا يتفاخرون به"عيلة السماوية " لاينكرونه..بل يرددونه فى كل مناسبة لبث الرعب فى قلوب أهل المساعيد..لم يعد أحـد يثـق بهم..أو يشاركهم طعاماً أو شراباً أو يصاهرهم أو يتعامل معهم إنتبذهم الناس..فتحولوا فى مجتمعهم إلى فصيل متعفن مـن القمامـة تنشـر الأمراض واللعنة والأوبئة .

(٤٤)

إستيقظت قرية كفر المساعيد على رائحة فضيحة تغـزو خياشـيم المجتمع "تنهيده"بنت حسن الديب الفتاة التى لم تتجاوز السادسة عشـر حامل..تم اكتشاف ذلك بالصدفة عندما تقايئت..رفضت أن تبوح باسم حبيبها..عطا..الدكتور عطا قريبها يعـرض خدماتـه للتطهـر مـن الفضيحة..حقنة هواء ..الجريمة بشعة لكنه طمأن أخوها.."حتى الجـن الأزرق لا يستطيع إكتشافها" .

الشيخ زهرى حلال العقد المستعصية ينفرد بالفتـاة..سـاعة فـى محاورة معها دون أن تعترف على الفاعل..صامتة صمتة أبدية.. ولما تأكد من صمتها خرج بعدها يعلن للناس :

محزون خدعها .

العمدة حبايب يرسل فى طلبـه..مقيـد بالحبـال..النـاس تقذفـه بالطوب..تبصق على وجهه رحلة طويلة عانى خلالها الأمرين حتـى وصل الـدوار..فـى انتظـاره تنهيـدة..الأسـئلة تنهـال عليهـا..لا كلمة..لاحرف فقط دموع تنهمر من عينيها..الشـيخ زهـرى يواجـه محزون يطلب منه عقد قرانه عليها محزون يصرخ فيه :

رجل خسيس..إزاى تجرؤ وتتهمنى التهمة الحقيرة دى .

رد عليه الشيخ زهرى فى تحدى :

وهى جديدة عليك ما انت عملتها قبل هذا مع زوجة صاحبك .

ناس كفر المساعيد على استعداد لتصديق أى إشـاعة تحمـل فـى طياتها مصيبة.. سكوت البنت على اتهام محزون دليل موافقتها علـى إدانته..فماذا تقول بنت السادسة عشر الخجل..الكسـوف يمنعهـا مـن الكلام إلا أن صوت نواره الواثق قلب المفاهيم :

وكان فين الكسوف وهى بتنام مع عشيقها .

حمحم الصمت..حاول الشيخ زهرى الكلام فاجأته نواره بقولها :

إنت تسكت خالص يا شيخ الضلالية .

لم تترك له فرصة الحديث وهى تستطرد قائلة :

عايزين تعرفوا اللى حبلها .

سكتت..الفضول والإثارة تأخذ بلب الناس فى انتظار مايسفر عنـه لسانها من مفاجآت..عادت تستطرد وهى ترسل قذيفتها :

اللى عملها الشيخ زهرى .

همهمات الغضب..صيحات الـرفض تواجههـا وهـى تسترسـل مستكملة..تشير على الشيخ زهرى :

أبو دقن جانى البيت.. إفتكرنى من إيـاهم..وطـى علـى رجلـى باسها..نتفت له شعر ذقنه.

الناس غير مصدقه..زهرى يحاول اخفاء نوبة الغضب التى تمكنت منه يهز رأسه يبتسم إبتسامة ساخرة يهمهم :

هل تصدقون زانية وخائنة كان لا بد من رجمها .

الناس لا تصدق..لاتريـد أن تصـدق سـوى أن محـزون هـو الفاعل..ضاقت حوله الدائرة والأهالى يقتحمون الـدوار..يتصـايحون" شرع ا واجب القضاء" الخفراء تقف مكتوفة الأيـدى أمـام الهجمـة

الشرسة..لايتحركون..ربما لأنهم يعرفون أن هذه هى رغبة العمـدة أن يتركوا الضحية حتى يتم افتراسها وتشيع المسئولية بين الذئاب .

الغوغاء تحمل محزون على الأيادى .. فـى تلـك اللحظـة تساقطت دموع الإله سقطت منها دمعة على رأس "فرج"..وكما يحدث فى الأفلام العربى عندما تتأزم الأمور يظهر المنقذ الحبيب المجهـول ليتزوج من حبيبته.فرج يقف أمام موجات البشر العاتية وهـى تحمـل محزون يصرخ :

مالوش ذنب..مش هو .

سكنت الأمواج..هبط محزون إلى الأرض..النـاس فـى انتظـار الإجابة عن سؤال سيبرئ ساحته..ومن هو الفاعل..لـم ينطـق فـرج بكلمة..لأول مرة يتدخل العمدة حبايـب يجـذب فـرج مـن طـوق جلبابه..يحركة الفضول بعد أن رفض المخرج أن يكمل المسرحية كما أرادها..زعق فيه زعقة كأنها الموت :

بتقول إيه ياحيوان .

فرج لا يرد .. أخرس يبكى.."تنهيده" هى الأخرى تبكى..مـا هـذا وما ذاك..الناس لاتفهم..تريـد أن تفهـم..أمـام قصـة لـم تكتمـل أحداثها..ربما تكتمل بمعرفة الفاعل العمدة يسأل فرج فى حدة :

جبت الكلام دا منين ؟!.

فرج يرد عليه من خلال تشنجاته :

محزون ماعملهاش .

يبقى مين يا فرج..إتكلم ..يبقى مين إذا ما كانش محزون .

أنا قلت وخلاص .

العمدة يصفعه فى قسوة :

يعنى إيه قلت وخلاص..إنت شفته ؟

أيوه شفته .

ومين هو ؟

فى تلك اللحظة هبت زابعة تحمل الرمال بل أسنة حجـارة تلطـم الجميع وفرج ينحنى يسجد إلى الأرض.. يلطم وجهه..يبكى..يهمهم من خلال تشنجاته :

ماكانش ممكن أسكت على واحد مظلوم يموت قدامى من غير مـا قول الحقيقة .

الناس مازالت لا تفهم..تريد أن تفهم..إنه حتى الآن لم يعتـرف إلا بنصف الحقيقة لكن الباقى..باقى الحقيقة..الفاعل..لكن ماذا يهم الفاعـل مادام محزون برئ..العمدة يصرخ من جديد وهو يجذبه مـن طـوق الجلباب :

إنت هتلعب بأعصابنا ..مين اللى عمل العملة السودة دى؟

فرج صامت هذه المرة صمت القبور لم تجدى معه إية وسيلة مـن وسائل التعذيب..ساعة والخفراء يتناوبون على ضربه وقدميـه داخـل طوق الفلكة حتى أغمى عليه دون أن يعترف أو يقـر بإسـم الفاعـل وسنقر من جديد فى ثقة :

يا ناس لو حطتوه على قرص الشمس..مش هيعترف لأنه هو اللى عملها.

(٤٥)

فى مكتب المحافظ بعد أن شرب "بسبوسه" الساقع والسخن بدأ الحوار هادئاً.. طلب بسبوسه محدد الملامح ..حاد النبرات..!! لعبة من ألاعيب السلطة الذكية توقف تنفيذ الحكم..حتى لحظة بداية الحديث كان بسبوسه مطمئناً للرد الإيجابى على مطلبه فمن ذا الذى يجرؤ على تحدى تيار الدين العفى..إما مجنون أو مهفوف أو فى القاع لكن بعد بداية الحديث إستشعر بسبوسه بأنياب المحافظ ومخالبه وهو يهمهم :

لا أستطيع اك شيئاً يا بسبوسه .

دا مسجد ياسيادة المحافظ .

وأنا قدامى حكم مشمول بالنفاذ .

الناس إختارتنى ولها أفضال على ولازم أدافع عن مصالحها .

تدافع عن الباطل يا بسبوسه .

قالها المحافظ مستنكراً .

رد عليه بسبوسه فى ضيق :

هو المسجد باطل!! .

فى تلك اللحظة حط على المحافظ نسر الغضب..إنشب فيه مخالبه وهو يرد قائلاً :

إسمع يابسبوسه..أولاً أساليب الأرهاب لن تجدى معى ثانياً ربطك مابين الدين وما بين مسجد كان أصلاً بيت تم إغتصابه ربط ظالم .. ثالثاً الإغتصاب اللى تم كان على بيت والحكم رجع البيت لصاحبه كونكم حولتوه لجامع وللا كنيسة وللا زريبة قضية تانية خالص .

عامل حساب ولد هلفوت فاسق وناسى المطلب الشعبى للناس كلها .

الحكم لافيه ولد هلفوت ولا فاسق..الحكم أدان واقعـة الاغتصـاب ذاتها حتى ولو كانت خمارة .

ياسيادة المحافظ دى مساحة البيت قيراطين..مساحة بسيطة المهـم نرضى الناس بدل ما نجرح مشاعرهم .

المطلوب منى يا بسبوسه ؟!

توقف تنفيذ الحكم..تعطله .

عرفنى إزاى ؟!

أنا الغلبان المسكين أعرف أكثر من الهلمة دى كلها .

نهض بسبوسه إليه..ربت عليه..قبل كتفه..مـرت فتـرة صـمت قصيرة قال بعدها المحافظ :

نورنى يا بسبوسه .

إى إجراء يعطل الحكم خير وبركة !!

زى إيه يا بسبوسه ؟؟.

تسحب الأرض منه.. تخصصها للمنفعة العامة .

منفعة عامة ؟!

قالها المحافظ فى دهشة واستغراب..رد عليه بسبوسه بنفاد صبر :

المساجد بيوت ا .

والصلاة فى مسجد سبق إغتصابه حرام .

إنت هتعمل فيها الشيخ شعراوى .

كده..تبقى تجاوزت حدودك .

ماهو كمان مش معقول أطلع من عندك قفاى يقمر عيش .

يقمر عيش..يقمر بقسماط مش قضيتى .

امال قضيتك إيه تعمل بلبلة بين الناس ممكن تنقلب لثورة .

المقابلة انتهت ياحمدى بك يابسبوسه !! .

هى انتهت من ساعة مادخلت عندك .

قبل أن يغادر استطرد قائلاً :

يكون فى علمك أنا هستصدر قرار إستيلا برضاك أو غصب عنك يافتحى..ياصعب ياسيادة المحافظ .

(٤٦)

العرائض والشكاوى تنهال على مكتب وزير التنمية المحلية تـتهم المحافظ بالتواطؤ مع الكفرة والملحدين وهو يرفض إستصـدار قـرار إستيلاء لبيت محزون بغرض المنفعة العامة..بسبوسه برفقته عضـوان من مجلس الشعب والشورى والعمدة والشيخ زهرى ووفد من الأهـالي يلتقون بالوزير..لواء جيش سابق لا يطيق كلمة لا..تصيبه بالارتكاريا تسبب لعقله الحساسية..يؤمن "بنعم".."حاضر"..

"أمرك" كلمات سحرية تفتح كل الأبواب المغلقة..بدأ بسبوسه حديثه مع الوزير عن الحكم الذى أثار بلبلة بين الناس فلم يراعى حرمة الدين أو قدسيته وهو يحكم لصالح رجل فاسق وغدا..وغدا هذا لـيس ببعيـد ستترتب على تنفيذه نتائج وخيمة عندما يقاوم الناس الإعتداء على أحد رموز ا بأعمال تكدر الأمن العام لن تستطيع الحكومة السيطرة عليها وقد تنتقل عدواها إلى قرى أخرى فالناس "مبقوقة" من الحكومة..فبداية الحريق شرارة..بعد أن أنهى بسبوسه حديثه فتح حقيبة سمسونيت إلتقط منها بكرتين ورق تواليت.. الأولى ثابت عليها توقيعات الأهإلى بـدءاً من العمدة وانتهاء بالخفراء فردها..والثانية عليها توقيعات النساء وقبل أن يهم بسبوسه بفردها..إبتسم الوزير أبعد بيده البكرة تمتم :

كفاية..كفاية يابسبوسه واحدة .

بسبوسه يطرق الحديد وهو ساخن مستطرداً :

فضلاً عن كلام الناس يامعالى الوزير..نقفل جامع عشـان رجـل زانى لايركعها..وربما يتجاوز الأمر لما هو أسوأ .

تهديد يابسبوسه .

قالها الوزير فى ضيق .

بسبوسه يرتدى ثوب الذلة والمسكنة وهو يعقب قائلاً :

يامعالى الوزير..كلامى رجاء لأن بعض المهاويس وانت أدرى بهم هددوا بحرق البيت لو استلمه صاحبه .

ورأى المحافظ فى الموضوع .

شرحت له كل الظروف والنتائج اللى ممكن تحصل لكـن للأسـف ودن من طين والثانية من عجين..لأ يا سيادة الوزير ودن من أسـمنت والثانية من جبس كل اللى على لسانه باطل..باطل..جواز عتريس من فؤاده باطل .

فى تلك اللحظة رفع الوزير سماعة التليفون ..همس :

محافظ الغريبة ياحسن.. قصدى الغربية !!

لم تمر لحظات إلا وجرس التليفون يدق..بسبوسه يعقب قائلاً :

يامعالى الوزير المحافظ لا بيحل ولا بيربط .

الوزير يرفع سماعة التليفون متمتماً :

أصبر يابسبوسه .

يستطرد قائلاً :

فتحى بك.. يا أهلاً..ياأهلاً .

مرت فترة صمت قصيرة قبل أن يستطرد الوزير قائلاً :

أخبار مزرعة النعام..نفسنا ندوق طعمه..نسيره من الصدر.. ولا من الورك وللا كيلو ريش ننجد بيه مخدة .

أعقب ذلك فترة صمت قصيرة قال بعدها :

إسمع ياسيدى بيزورنى فى مكتبى ناس بتحبك بسبوسه وعضوين من مجلس الشعب والشورى ووفد من أهالي كفر المساعيد واخدين على خاطرهم منك .

حلت فترة صمت قصيرة استطرد بعدها الوزير قائلاً :

بسبوسه حكى لى الحكاية كلها..مش معضلة ورقة من سطرين عليها توقيعك.

فى تلك اللحظة نهض بسبوسه..زحف بصدره على مكتب الوزير..قبله..تمتم فى سعادة :

يعمر بيتك .

الوزير يستطرد بنبرة جادة :

لو الموضوع أثير فى مجلس الشعب هيفتح علينا باب نار جهنم..أسهل ماعليهم يتهمونا بالكفر والوقوف ضد الدين..وإحنا مش ناقصين .

حل صمت ثقيل..طالت مدته..إنفجر بعدها الوزير قائلاً :

صح فيه حكم قضائى لكن حكمنا إحنا مختلف..القاضى بيحكم بناء على ورق لكن إحنا حكمنا بيعتمد على الرأى العام .

يا سيادة المحافظ فيه مستجدات على الساحة .

أيوه..إنتخابات مجلس الشعب على الأبواب ولازم نسترضى الناس عشان ينتخبوا مرشحى الحزب .

أيوه ياسيدى نسترضيهم على حساب العدل..ييجى إيه قرار استيلا على بيت مساحته قيراطين جنب تخريب الأرض الزراعية بالأفدنه وتحويلها لمبانى عشوائية ومحافظتك واخده نمرة فى الإحصائية .

مش أول مرة تحصل.. سبق للحكومة واستولت على شوارع بأكملها..بأرضها وناسها للمنفعة العامة .

لا مش أنا اللى بيحدد السياسة..اللى بيحددها الحزب ورئيسه وربنا يطول لنا فى عمره .

مضبوط سياسة لتخريب المجتمع وأن ماكنش عاجبك إنت عارف السكة كويس .

يعنى إيه قاعد على طّواله.. هو دا برضه مستوى حديث محافظ .

هو رئيس الوزارة فاضى للرفايع دى إمال أنا واللى زيك بنعمل إيه ؟!

بتقول إيه..أنا اللى أوقع قرار الاستيلاء..هى بزرميط .

وكانت هذه آخر كلمات الوزير مع المحافظ.. قذف بسماعة التليفون لمخدعها وهو يهمهم متحسراً :

أقول له طوريقول لى إحلبه .

(٤٧)

الليلة مناسبة عزيزة..إجتمع أصدقاء محزون أمام الخص..التـابعى و"دمور" و"عوضين" و"مستجاب" و"عيطه المدروش" و"بلاص" و"سـبع البرمبة"..يستضيئون بنور الكلوب يفترشون الحصير فى دائرة حـول "ركية" نار ..ألسـنة اللهـب ترتفـع وبـلاص يلقـم النـار فـروع الأشجار..حرارتها تتطاول للوجوه والأجساد تشع فيها الـدفء..لمـاذا تحمل الوجوه تلك الملامح الضبابية رغم أن القلوب مفعمة بالفرحة هذا هو حال الفلاحين يتشاءمون من ضحكاتهم خوفاً على الغد من مآسـيهم يستعيذون با من شيطان البهجة والسعادة..شريعة الغاب!!حتى الفرحة لايهنئون بها..الصمت يلف الجميع يتخلله على فترات متقطعة أحاديث ثنائية عابرة..فقد بدأ الحفل منذ وقت قصير بعشوة دسمة أعدها أصدقاء محزون.. بط وأرز معمر ولحم وملوخية..لقد ذبح التابعى جدى كـان يربيه للعيد..الجميع فى انتظار فهيم..القلق يساورهم..لقد تأخر وصوله إلى ميناء البهجة هو الذى سيحيى الحفل بصوته عندما يفرد قلاعه فى بحر السكون..نهض دمور تمتم :

أنا هروح له ولو فى سابع أرض !!.

خطوه..إثنين رآه قادماً متوشحاً رداء الظلمة..إقترب شبحه..تأكـد دمور من فحواه ناداه لقد شرف قيثارة الجلسة..ألقى فهيم بتحيته قبـل محزون همس فى أذنه :

مبروك .

وقبل أن يستقر فى جلسته سأله محزون :

تتعشى .

لا..الحمد ..إتعشيت عند حماتى .

التابعى يمسك بالناى..يغازله بشفتيه يقبله يترنم بلحن شجى حـزين ..يحادث به المجهول..يستحضر الماضى..أيام زمان والعـزب آمـين يسوق المئات من أهالي الكفر لحفر ريـاح العباسـى يتسـاقط مـنهم العشرات صرعى المرض والجوع..يوارى جثثهم قاع النهـر..يشـهد على ذلك أنات الموتى يسمعها الصيادون أثناء الليـل مـع ضـربات المجاديف..لم يتغير شئ منذ حكم عباس حلمى..لم يتبدل سوى شخص الحاكم..أصبح مصرياً..لكن الضحايا هم بالمئات ..بـالآلاف.. قـتلهم غباء حاكم..وتم دفنهم تحت رمال سيناء خلال سنوات وفى منتصـف الليل ينهض الموتى من رقدتهم البلهاء يرددون فـى حزمـة واحـدة أصوات اللحظة الأخيرة يرسلون صرخاتهم المنداة بالفزع والألم عبـر المسافات لقصر حاكم خان قضية شعبه..ظلت الأصوات تدوى فى أذنه بل فى رأسه حتى قتلته شر قتله..لم يقتله سم أو جرعة دواء بل قتلتـه صرخات الموتى .

ما زال نغم الناى يستحضـر ذكريـات الماضـى القريـب والبعيد..الكل يستمع..لا يملكون سوى آهات الإعجـاب فـى انتظـار إنطلاق صوت "فهيم" الحنون من عقاله..يوقظ بـه الهـوام تتـراقص الفراشات حوله كما يتراقص حول الضوء..نغم النـاى يأخـذ بلبـابهم يحرك وجدانهم..فهيم يترنم بكلمات متقطعة غيـر مفهومـة..اللحـن يستنطق لسانه..يتمتم :

غنوا معاياً .

موجات صوته الحزين تتعانق والأثير :

ياطير ياشارد غنى للغايبين .

قل لصاحبة القلب الطيب إحنا راجعين .

نزف نواره الجميلة على نور العين .

صدر الحنان إشتكى من هجر طال سنين .

والهجر لما طال فرق قلوب عاشقين .

دا حبيب القلب مستنى وكله حنين .

عوضين يغْز سبع البرمة متمتماً :

ما تقوم تفرفش القعدة .

سبع البرمبة هذا ليس إسماً على مسمى..بل إسماً بلا مسمى ضئيل الحجم..قليل البنية..قصير القامة لكنه يملك عقلاً مسحوراً .. فى الشـر سهماً نافذاً وفى الخير حلال العقد المستعصية !! أمسك سبع البرمبـة بعصا طويلة..أطول بكثير من قامته..يحركها فى مهارة فهو يحاورهـا ويلاعبها ويداورها..فى يده مستسلمة خانعة والنـاى يرسـل نغماتـه الشجية وفهيم يسترسل فى غنائه :

دا حبيب القلب مستنى بقاله سنين .

عشق فيها عنين سحراوى..نهدين جبلاوى .

الشعر يغرق فى سواده مراكب صيادين .

دا حبيبها ياناس مستنى بقاله سنين .

الكلام..اللحن..الغناء يوقد فى الأصدقاء شعلة الحمـاس..السـعادة تتضافر و"عيطه المدروش" ينهض ومعـه "دمـور" و "عوضـين" و

"سـنجاب" جـذبوا يـد محـزون.. الأربعـة حولـه يرقصـون ويتراقصون..تزايد حماس فهيم..توهّد صـوته الأسـطورى بالبهجـة ارتفعت نبراته وهو يسترسل متغنياً :

دا الهوا سبق الدوا .

من غيره ما كان أطبا ولا عيانين .

سهم الهوى غلاب كسر الحديد والباب .

بكلمة حب من الأحباب .

نار الركية تزداد اشتعالاً و"بلاص" يلقمها فروع الأشجار مثلها مثل القلوب..تتوهج بالفرحة.فى بقعة قريبة من الخص على بعد خطـوات عقْد بشرى حباته نساء وفتيات فى عمر الزهور فى أثواب مزركشـة ألوانها..الأحمر والأزرق والأخضر والكستنائى التئمن فى دائرة حـول نواره..زهرة ندية بفستانها البمبى المسخسخ..يفوح من ثناياهـا عطـر الفرحة وصوت "حمزاوية" الغامض النبرات..الآتى من ضمير الإنسان ومعاناته وعذاباته عبر السنين ينساب فى بطء يحمـل فـوق موجاتـه أسراراً خفية يصعب تفسيرها أو حل شفرتها..كثيراً مـا أخـذ بريقـه الذهبى بقلوب رجال لم يصمدوا كثيراً أمام توهجه .

عريسنا رمى الشبك .

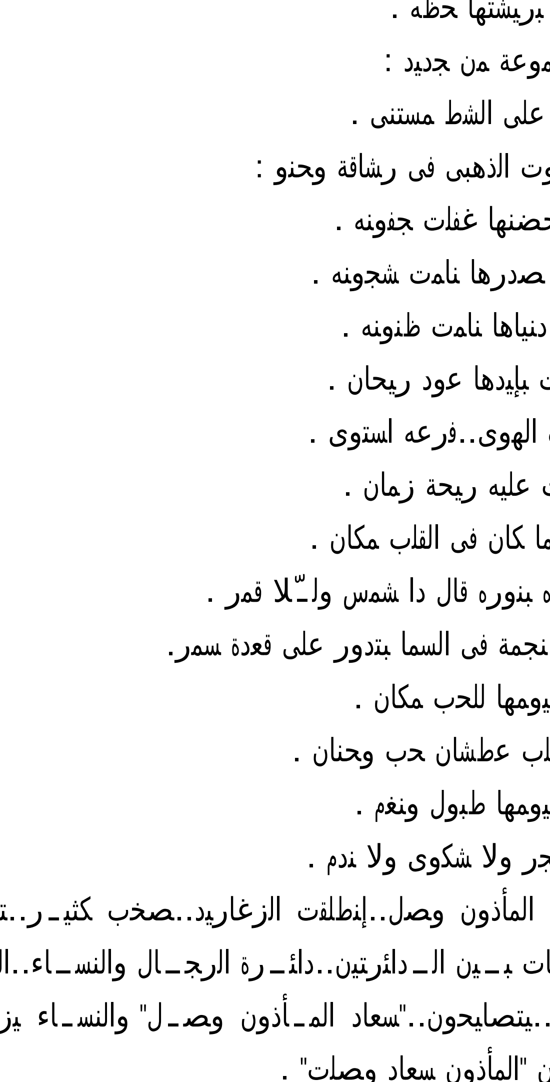
الأصوات البدائية تردد خاف حمزاويه :

ووقف على الشط مستنى .

الصوت الذهبى من جديد يزداد تألقاً ولمعاناً :

قدم قلبه مهر وشبكة .

عمره كله فدا لحظة .


رسم بريشتها حظه .

المجموعة من جديد :

وهو على الشط مستنى .

الصوت الذهبى فى رشاقة وحنو :

فى حضنها غفلت جفونه .

على صدرها نامت شجونه .

جوه دنياها نامت ظنونه .

حطت بإيدها عود ريحان .

شاف الهوى..فرعه استوى .

فاحت عليه ريحة زمان .

يوم ما كان فى القلب مكان .

زهره بنوره قال دا شمس ولــّلا قمر .

وللا نجمة فى السما بتدور على قعدة سمر.

كان يومها للحب مكان .

فى قلب عطشان حب وحنان .

كان يومها طبول ونغم .

لا هجر ولا شكوى ولا ندم .

سعاد المأذون وصل..إنطلقت الزغاريد..صخب كثيـر..تقاربـت المســافات بــين الــدائرتين..دائــرة الرجــال والنســاء..الرجــال يصفقون..يتصايحون.."سعاد المـأذون وصـل" والنسـاء يزغـردن ويصرخن "المأذون سعاد وصلت" .

(٤٨)

مانشيت فى صحيفة "الحقيقة الحافية" "الحكومة تصـادر مسـجداً" وتحت المانشيت مجموعة أكاذيب إدعت فيها الصحيفة أن المصـادرة تمت لصالح فاسق زانى له صلة بأحد كبار المسئولين فى الدولة هـذه الأكاذيب لم تأتى من فراغ فإسم الصحيفة يستدل منه على أنها حافيـة رغم أنها ترتدى حذاء .. مجموعة أكاذيب بالمقاس يتم إستلهامها مـن مزبلة صاج أمام مبنى الصحيفة يشتم منها رائحة العفونة والنتن..هذه المزبلة تحوى معظم الأفكار التى تنشرها الصحيفة تباعاً مـع تغييـر طفيف فى أسلوب التناول لقد قام "مغامر" رئـيس التحريـر بتغطيـة الموضوع تباعاً فى ثلاث أعداد متوالية واستقى كل معلوماته من تلـك المزبلة الصاج وهاجم القاضى وحكمه..إتهمه بالكفر وتتطـاول بقلمـه على قيمة العدل الذى لم يتحقق بمنظوره هو..العقيم ..الممل.

إتسعت رقعة دائرة الدين الجهنمية و"حمدى بسبوسه" يثير القضـية فى أروقة مجلس الشعب مدعياً زوراً أن المحافظ يرفض إنقاذ رمز من رموز ا قبل أن يحترق على عتبة حكم قضائى أخطأ فـى المنطـوق والأسباب وجانبه الصواب عندما فضل فاسق على ا سبحانه وتعـالى وإنبرى البعض لتأييد بسبوسه فى مطلبه..بل وقف بعضـهم يصـرخ وإسلاماه لقد أتى الزمن الـذى تصـادر فيـه المسـاجد مـن أجـل الفاسقين..ساحة السياسة يعلوها الضجيج بعد أن تاهت الحقيقـة وتـم وضع القاضى خلف قضبان الإتهام..وأصبح فى موقف الدفاع عن نفسه وعن حكمه .

أحيل الموضوع برمته إلى لجنة تشكلت بالمجلس..وانتقلت اللجنـة إلى المزبلة إياها الكائنة بشارع "الحقيقة الحافية" تبحث وتنقـب علهـا تعثر على أفكار تعود بها إلى المجلس..تطرحها للنقاش وبعـد تقليـب وتمحيص عثرت على مرادها..قصاصات أوراق صفراء قديمة..قرأتها واستوعبتها ثم عادت إلى المجلس باقتراحها توصية للمجلـس المـوقر بالتخاطب مع رئيس الوزراء ووزير العدل ومجلس القضـاء الأعلـى لتحويل القاضى لعمل إدارى وتخصيص أرض وبيت محزون للمنفعـة العامة !!

(٤٩)

في نفس اليوم الذى صدرت فيه هذه التوصية سار موكب فى أحـد شوارع كفر المساعيد..وجهته بيت محزون..فى مقدمته محضر يرافقه عسكرى من المركز ومعهما محزون وبعض أصدقائه المقربين وقلـة من الفضوليين..خلف الموكب أعضاء فرقة حسـب ا يـدقون علـى الطبل والصاجات وينفخون فى المزامير..عيطـه المـدروش يتغنـى والناس تردد خلفه :

يا محنى .

ديل العصفور .

محزون ؟.

هو المنصور .

والعمدة ؟.

هو الفرفور .

وزهرى ؟.

لابس طرطور .

وسنقر ؟ .

جوه المجرور .

وبيض ؟

بيغنى سطور.

بتقول ؟

أيام العز شهور .
والوالى ؟
عليه الدور .
وشحته ؟
مسيره يغور .
وكموله ؟
راكب حنطور .
بيودى ؟
على سجن الطور .
ودوحه ؟
على طول مسطول .
"واللّى "
هو الصرصور .
وروقه ؟!
بيطق بخور .
عشان ؟
ييجى له زبون .
لإيه ؟
يحط فى الفونية خبور .
وقضاتنا ؟
وا نسور .
بتبنى ؟

للعدل جسور .

وبلادنا ؟

خللى الطابق مستور .

تزايد الحماس وعيطه المدروش يتغنى وخلفـه أصـوات النسـاء والرجال :

يا محنى ؟

ديل اليمامة .

ونواره ؟

بعريسها فرحانة .

على غصنها ؟

وردة فيحانة .

وعطرها ؟

عود ريحان .

وشفايفها ؟

كهرمان .

إقترب الموكب من بيت محزون..اعترضه سفايه وقمحـة..سـفايه يتصايح قائلاً :

ياللا ياجدع إنت وهو..ياللا يابت إنت وهى .

قمحه هو الآخر يؤازر سفايه..يتصدى للمحضر قائلاً :

عايز إيه يا أخينا..حطيتنا وا فى حيرة .

يرد عليه المحضر قائلاً :

أنا الباش محضر عماد..فى إيدي حكم بالنفاذ يرجع البيت لمحزون ويتقفل ماف مظلوم .

فى تلك اللحظة خرج العمدة من الدوار بصـحبته الشـيخ زهـرى وسنقر وبعض الأهالي يعترضون الموكب..العمدة يزعق :

أنت وهو وهى غوروا من وشى الساعة دى .

يستطرد قائلاً للمحضر :

إكتب عندك إستشكال .

مسجد ربنا وبلاش استعباط وإستهبال .

إكتب عندك استشكال .

مسجد ربنا لا يتهد ولا يتزال .

(٥٠)

قرية كفر المساعيد..مثل مئات القرى..البشر فيها مطحون..مقهور أذله..كل ما يصبون إليه ملء الفم والثقب..وتتفاوت نوعية الملئ الفمى من شخص لآخر فواحد يكفيه كسرة خبز وقطعة جبن قريش وآخـر لا تشبعه بطة فى وجبة واحدة وثالث يكتفى بلحم بطنه..أما الثقب فيتراوح ما بين ثقب إمرأة وثقب حمارة أو بطة!!القاسم المشترك الذى يجمـع بينهم هو الحقد الأعظم..فالكل يحقد على البعض والبعض يحقد علـى الكل حتى "رميح" هذا الذى يملك الطين والبهائم يحقد علـى "زربـيخ" المعدم يرى فى فقره نعمة من نعم ا الكبرى لأن الفقر يتطلب القناعة والقناعة كنز لايفنى!! ولأنه لا يملك هذا الكنز الثمين فهو دائماً حقـود ليله..نهاره.معظم الأهالي..الأغلبية يعيشون حياة الحيوانات..بل أدنـى منها قليلاً..ربما أقرب إلى حياة الديدان يتناسلون ويتوالدون مثلها..كل ما يشغلها أن لا يقتلها الجوع لذلك فهى تقاوم للبقاء على قيـد الحيـاة أطول فترة ممكنة لا يهمها كيف تعيشها..المهم فقط أن تبقى حية رغم أن الموت لمثل هذه الديدان أفضل وأكثر راحة ما بعدها راحة ..فمـا معنى حياة الديدان سوى إتيان حركات دودية عندما يقرصـها الجـوع وعندما تلقى بفضلاتها.

الناس فى هذه القرية مثل غيرهم فى عشرات القرى..تأكـل أبدانها..وتتلذذ وهى تستزرع الأرض أعمدة خرسانية بدلاً من النبـت الأخضر..تقتل فيها دورة الحياة..تلتهم بالمبانى رقعتها الزراعية..غول

مفترس لا يترك فريسته إلا بعد أن تصبح أثراً بعد عين..أغبياء كم من الجرائم ترتكب بإسم قانون الأغبياء..لايدركون أنه بعد سنوات سيتحول الجسد الفتى الذى يمدهم بالطاقة إلى مجرد فقاعات هواء..أمس تشكلت لجنة من المحافظة برئاسة الدقاق من "دق يدق دقاً" فى حراسة المأمور البيه الدفراوى لإزالة المبانى المخالفة..إنتقلت اللجنة بكامـل تشـكيلها برجالها الفطاحل وجنودها أصحاب الأردية السوداء إلى قريـة كفـر المساعيد مرت على بيت الحبايب..وبعد أن أفطـرت إفطـارا دسـماً أكملت نزهتها داخل القرية..طالعت المبانى المخالفة..كتبت تقريرهـا تثبت فيه قيامها بالمهمة خير قيام..أنهـا أزالـت عشـرات المبـانى المخالفة..كذب غش..خداع..ضلالة..حبات عقد على جيد الحقيقة..ليس المجرم هو فقط من أقام البناء بل أيضاً هذا الذى سمح به..ليس هو فقط من خرب الأرض بل أيضاً هذا الذى لم يطهرها..فمن أقام البناء لديـه أسبابه لكن ما دوافع هذا الذى سمح به أو خادع وهو يثبت إزالـة لـم تتم..ألا يستحق الشنق على باب أى مبنى مخالف..والسؤال لماذا كـل هذا؟!..لماذا تفعل السلطة ذلك ممثلة فى رجالها المؤتمنين على مصالح الناس..إنها الكراهية الدفينة التى تحملها لنفسها..إنقـلاب بدأتـه ضـد نفسها بعد أن أنمسح من الذاكرة معانى الوله بـالوطن فلـم يعـد لهـا وجود .

(٥١)

إستيقظت القرية على فضيحة أخرى من نوع جديد لم يألفه النـاس أقرب إلى المعجزة "نَصفه " باسم نصفه انطق "رسمية" الخرسـاء لـم يصدق الناس..تقاطرت مجاميعهم نحو الدوار حيث تـدور الأحـداث. نصفه والعمدة والشيخ زهرى ومشايخ القرية ولمة كبيرة تحوط مجرى الأحداث..الكل متحفز ضد نصفه وهم يستمعون لرسمية الخرساء التى كانت خرساء وهى تتكلم كلاماً متقطعاً..لقد دخلت مع باسم عشة الفراخ وبعد أن أغلق بابها طلب منها أن تخلع لباسها حتى ترقد على بيضـة ستفقس بمجرد رقادها ووعدها بالكتكوت قبل مغادرتها العشة..وطالت رقدتها..وقبل فقسها بلحظات قليلـة إقتحمـت "شـق القمـر" العشـة عليهما..صرخت..تمادت صرخاتها..ولولـوت زوجـة طعنـت فـى كرامتها.خلخلـت الرهبـة إرادة "رسـمية" ذعـرت صـرخت هـى الأخرى..نطقت..معجزة وأى معجزة هلل لها الكثيرون..الشيخ زهرى واحد منهم يحاول التقليل من حجم المشكلة وهو يتمتم سـاخراً..مغلفـاً كلماته بابتسامة صفراء :

سبحان الله مرة خيـارة حبلـت البنـت ومـرة بيضـة أنطقـت الخرساء..ماذا دهى نساء الكفر؟!.

العمدة حبايب يوجه الاسئلة س ،جـ ،جـ ،س لرسـمية.. كيـف حدث هذا وكيف نطقت؟!الإجابة لاتتغير.

قال لى أقعدى على البيضة..قعدت .

غرر بها..فهذه البيضة أفقدتها عذريتها!! العمدة حائر متـردد فـى إتخاذ إجراء حاسم ضـد نصـفه..فشـقيقته هدايـة زوجـة الشـيخ زهرى..يحاول جاهداً تطويق آثار المشكلة حتى لاتتضـخم ويصـعب حلها..الشيخ زهرى يرى أن معجزة ا تحققت وأنطقت الخرساء..وما كانت لتتحقق لولا أن هئ لها الظروف ونصفه يفـض بكارتهـا..ثـم زوجته وهى تفاجئهما..فهذه إرادة ا أن تستنطقها فارب ضارة نافعة وقليل من السم يصلح دواء..إقترح الدنف خال رسمية علـى باسـم أن يتزوجها صرخت هداية محتجة :

أخوى يتجوز رسمية العبيطة .. مستحيل .

سنقر يوارى كلماته بالحكمة وهو يتمتم :

نعتبرها ياعمدة عملية لوز أو أحبال صوتية .

العمدة يسخر بكلمات ينضح منها الضيق :

لوز لكن من تحت ودكتور أونطه .

فجأة دمدم العمدة فى لهجة تهديد ووعيد :

حبس يا ابن نصفه..أقلها خمس سنين .

تضايق الشيخ زهرى..صرخ بما يخالجه :

حقها تشكر ربنا..لولاه ما نطقت .

تشكره على إيه ياشيخ زهرى الأخرس فى زماننا أفضل من الديك الفصيح..اللى بيتكلم النهاردة بنسجنه .

سكت..عاد مستطرداً :

إسمع يابن نفيده..إكتب لها خمس قراريط من أرضك بيع وشرا .

فى تلك اللحظة..أخرج باسم يده من تحت العباءة همهم مشوحاً :

هى اللى قعدت بمزاجها .

يا جحش البنت قاصر..وكلامك مايكاش .

ولاسهم ..هى كانت من بقية العيلة.

يبقى كده سهم ا نفذ فيك.العواقب إن شاء ا وخيمة كل قيـراط بسنة سجن.

حتى لو عشر سنين .

قفز العمدة من جلسته..صاح فـى غضـب شـديد وهـو يمسـك بالخيرزانة :

إليته .

بدأ فى ضربه والخفراء تعد..واحد..إثنين..عشرين.. صرخ باسم :

خلاص ياعمدة أكتب لها ثلاثة قراريط .

زعق العمدة من جديد :

الإليه .

الخفراء تبدأ العد من جديد ا واحد.. إثنين..ثلاثة..عشرين..ثلاثين إستسلم باسم متأوهاً باكياً :

خلاص ياعمدة خمسة .

رد العمدة من جديد :

وجاموسة عشْر يا ابن تفيدة .

(٥٢)

القمر بردائه السنجابى ..سرعان مايخلعه..فيشع نوره الخافت على جسدين يتطارحان الغرام ..رأس محزون تحتضن فخذ نواره..تـداعب بأناملها شعره الأسود..مولعة به..هو عشيقها وسيدها وحبيبها..عاشـقة جارية تحت أقدامه..حبيبة أحاسيسه..الحب طاغى..جبار يحول الجماد إلى حزمة من المشاعر..يداعب فى الإنسان أجمل مافيـه ..محـزون يحسد نفسه..كل هذا الحب وهذا العشق..دائماً يشعر كلما اقترب مـن معشوقته أنه يطول بها ا ..تقربه مسـافات ومسـافات وهـى بـين ذراعيه..يخفق قلبه بعشق إلهي..كم يعشق قربهـا..كـم يتـوق إلـى حضنها..هى حاضره وما ضيه ومستقبله وردة كلما قطفها أنبتت مكانها وردة أخرى..رائحتها داخل جوانحه..همس لها بعشق طاغ :

بحبك يانواره..إنت سماى وأرضى..حتة منى .. جوه دمـى..مـن غيرك أتخنق .

سلامتك..فداك روحى ونفسى وأيامى الجايه وأيامى اللى فاتت .

عايز أعيش لك .. حامل همك لو حصل لى مكروه .

ما باليد حيلة سايسهم .

لو سايرتهم أخسر نفسى .

إخسر .. المهم تعيش لى .. دول جبابرة .

بكت نواره ..استرسلت دمعتان على وجه محزون..إنتفض مذعوراً همهم فى يأس:

مالك يانواره ؟

خايفه .. إزاى أعيش من غيرك؟

عمر الشقى بقى .

سكت محزون .. عاد مستطرداً :

عارفه يانواره أنا لا خايف من العمده ولاطلاليه لكن اللى راعبنـى الضفيرة.

ضفيرة ؟!

قالتها نواره فى استغراب !!

أيوه عصاية حبايب وسبحة الشيخ زهرى .. ضفيرة يخنقوا بيها أى واحد يتطاول عليهم .

سكت عاد مستطرداً :

ما بقاش قدامى غير حل واحد أقتل العمدة والشيخ زهرى فى يـوم واحد وأخلص الناس من شرورهم .

ويطلع بدالهم تلاتة..أربعة..خمسة..زى بـيض التعـابين مسـتنى الفقس .

يبقى على الأقل عرفت الناس بقضيتهم .

قضية إيه يا محزونتى همه الكلمتين اللى اتعلمتهم لحسوا عقلك .

أمسك محزون بيدها..تحسس الأسورة الذهبية فى معصمها..تمتم :

زى أسورة لـّـى التعبان..لكن بدل الدهب سبحة وعصاية .

إنت بتكلمنى بالألغاز .

ولا الغاز ولا طلاسم ..كل ما فى الأمر ان الناس بتشوف السـبحة إسورة دهب لكن حقيقتها تعبان سمه زى سم الشيخ زهرى اللى بيدمر عقول الناس ويخّرب نفوسهم وبكده يمهد الأرض لعصا حبايب يطـيح بيها فى الخلق .

واحنا قاعدين ليه معاهم نبيع أرضنا ونرحل .

فى كل بلد هتلاقى العمدة حبايب والشيخ زهرى واحد قاعد يبسبس على حبات السبحة بكلام همايونى والثانى فى إيده عصايه لو حد تجرأ وقال كلمة حق .

خلاص نروح مصر لا هنلاقى فيها حبايب ولا الشيخ زهـرى ولا زفت الطين .

ياحبيبتى مصر هى كفر المساعيد لكن بدل العمدة حبايـب رئـيس إسمه حبايب..ربنا فوق وهو تحت معاه بدل الخفر جيش جرار يحرسه ويحرس نظامه .. عسكر تسد عين الشمس تاكل قلب أى واحد يهمـس بكلمة تمرد وبدل الشيخ زهرى شيخ تانى إسمه أزهر على راسه عمة توزن نص طن دهب.. يتكلم بلسان فصيح زى الـديك الفصـيح لمـا يصيح فى الفجر لكن الفرق أن الديك بيهلل للفرحة .. للنور لكن أبـو عمه دهب بيصيح غضبان من أى واحد ماسك بايده مصباح ..خـايف من الضى يفتح عيون إتعودت على الضلمة سنين وسـنين لغايـة مـا اتعمت .

سكت محزون عاد مستطرداً :

إنسى مصر وناس مصر .. بعد ما اتزحمت بالضفاير.. فـى كـل حى ضفيرة فى كل وزارة .. فى كل مصلحة حكومية .. فى أى شارع

ويمكن فى كل حارة .. وكل الضفاير دى بتصب فى عابدين وسـيدنا الأزهر .

سامعه .

نواره تقف..تتعقب الصوصوة..تعثر على فرخ أوز خارج فى التو من البيض داخل كومة من فروع الكوسة..نواره تلتقطه..تهمس :

الأمل جه لغاية عندنا .

(٥٣)

فى أحد شوارع القرية ..عيطه المدروش يمسك بيده خـيط دوبـار معاق فيه لسان..يطوح اللسان يمنة ويسرى يتغنى :

لسان البغل قطعه كان سهل .

ريحنا الناس من كتر الرغى .

مابقاش غير نكتب له النعى .

لسان البغل قطعه كان سهل .

فى مستشفى المركز العام الشيخ زهرى ينام فى سرير وقد لفلفـت حول فمه الضمادات الضابط يحاول استجوابه..لايقدر..لايستطيع..عليه أن يستكمل المحضر..طلب أن يحدثه بالاشارة..دون جدوى..لم يصـل لأية معلومات أعطاه ورقة وقلم..كتب الشيخ زهرى على الورقة."عيطه المدروش" فى نفس اللحظة الذى كان يجلس فيها عيطه المدروش مـع محزون أمام الخص..محزون غاضب غضبة شديدة..يزعق :

غلط..غلط..اللى أنت عملته أكبرغلط .

يرد عليه عيطه المدروش فى هدوء غريب :

لما غلط قلت لى لسانه عايز قطعه ليه؟! .

رد محزون قائلاً :

ساعة غضب لو كل واحد نفذ اللى بيقوله نص البلد يبقى ضـحايا والنص الثانى متهمين .

فى تلك اللحظة اندفعت نواره من الخص مثل سهم يئز.. بكلماتهـا الغاضبة :

الولد العبيط دا قاعد معاك ليه ؟!.

إستطردت موجهة حديثها لعيطه المدروش :

قوم فز..أنت مالكش قعاد هنا .

محزون يتداخل فى الحديث قائلاً :

عيب يا نواره .

إنت عايزهم يجرجروك معاه .

سكتت..إسترسلت قائلة :

قوم فز..ماشى فى البلد ماسك اللسان وبتذيع أغانى .

همت نحوه أمسكته من جلبابه..زعقت فيه :

قم من هنا الساعة دى أحسن العفاريت بتتنطط قدام عينى .

وقف عيطه همهم فى حزن :

كده برده يانواره .

خطوات قليلة ويقتحم المكان العسكر والخفراء يقبضون على عيطه المدروش ومحزون وسط صرخات وآهات نواره .

أمام وكيل النيابة أدلى عيطه المدروش بأقواله..لقـد قطـع لسـانه الشيخ زهرى حتى ينقذ النـاس مـن سـلاطته..أقـر فـى التحقيـق بالواقعة..وجاء تقرير الطبيب الشرعى يؤيد أقوال عيطـه المـدروش فاللسان تم بتر جزء منه بآلة حادة وطالت فترة التحقيق ..أمام وكيـل النيابة حالة فريدة من نوعها يصر على أن يستخرج من أعماقها كـل

الأسرار لذلك طرح السؤال فى صبر وعناد..فى لحظة مـن لحظـات التحقيق تشكك فى سلامة عقلية هذا المتهم الماثل أمامه إجاباته مبتورة إجابات معتوه أو مدروش زاهد فى الدنيا.. ظل لوقت طويـل يسـتفزه حتى صرخ عيطه المدروش :

أيوه قطعت لسانه .. شهد على زور واتسجنت ثلاث سنين ظلم.

وكان قرار النيابة حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيـق فـور أن خرج عيطه من حجرة وكيل النيابة أبصر بمحزون يجلس فى الردهـة وبجواره نواره .. نهض محزون..إحتضـنه..بكـى عيطـه ..طوقـه بذراعيه المقيدة بالأساور همس لمحزون فى انفعال :

ماتخافش .

فى الطريق إلى محبس المركـز..مسـافة لا تقـل عـن مـائتى متر..عيطه المدروش يسير وبجـواره " قاسـم" العسـكرى..عيطـه يدفعه..ينكفئ..يطلق لساقيه العنان العسكرى يتعقبه صارخاً :

هربان..هربان .

يلاحقه وفى يده الطبنجة..لم يدرى الا وثلاث طلقات تئز فى جسد عيطه..الدم يسيل..تتساقط أجزاؤه على الأرض يردد نفس العبارة التى طمأن بها محزون :

ماتخافش ..ماتخافش .

محزون سمع صوت الطلقات بعدها بقليل رأى العسـكرى قاسـم يهرول داخل ردهة النيابة..انقبض قلبه..زعق زعقة كأنها الموت :

عيطه!!

أسرع إلى الشارع خلفه نـواره إلـى لمـة تسـد منافـذ الهـواء إخترقها..عيطه مستلقياً علىأرض الشارع ينزف مازال حيـاً..هـبط إليه..قبله..صرخ فى اللمة :

ياناس.. أسعاف .

عاد يسأل عيطه فى رفق :

ليه عملت كده .

حروف كلمات عيطه تائهة..يرد عليه :

أنـا بـ ـ حـ ـ بـ ـ ك قـوى يـامحزووون وإنـ ـ ت كمـان يانوواره..أحضنى يامحزون .

ضمه محزون..علت صرخة عجوب..تختـرق السـموات تعلـن غضبتها على الوجود..لم يكن لموت عيطـه مبـرر..إسـتمع الالـه للصرخة..طفرت من عينيه الدموع..ينعى عيطه المدروش يقول فيـه كلاماً :

مكانك بين الشهداء والصديقين .

رأسك فى راحة يدى أقبل منها نينى العين .

دماؤك أطهر ما فى الوجود .

أنت فى الجنة موعـ ـ ـود .

فلا تحزن ياعيطه..فأنا راضى عنك .

رضا لا تسعه أرض ولا تحده حدود .

سمع محزون هذا الحديث..غاب عن الوعى لحظات.. نقشت بداخل قلبه الكلمات.. نهاية درامية غير متوقعة..وجنازة أيضـاً تسـد عـين الشمس..سار فى جنازته المئات..شيعوه بالحب والـدعوات..أحـاطوا

قبره بأشجار الفل والريحان دهنوا الجدران بالجير..وكتب محزون تلك العبارات التى أوصى بها ا على قطعة رخام..من هذا اليوم تحول قبر عيطه المدروش إلى ضريح ومزار للناس يطوفون حولـه ويطلبـون الغفران .

(٥٤)

نواره فى شهرها التاسع..بطنها مكورة..تجلس أمام وابـور جـاز يرسل شعلته تحت قدر تنبعث منـه رائحـة حسـاء اللحـم تعبـق الكوخ..نواره تقلب اللحم..تمسك بقطعة..تنفخ فيها..تذوقها اطفأت شعلة وابور الجاز..محزون فى الخص..منذ صباحية ربنا وهو يدفن شتلات الطماطم داخل الأرض الطينية المبللة..نواره تخرج من الخص..تقترب من محزون تتأمل الخص وشتلات الطماطم تتناثر داخله..تزقزق له :

الأكل جاهز .

محزون يفرد قامته..يبتسم لها ابتسـامة الفجـر عنـدما يحتـوى الظلمة..يتمتم :

ياللا .

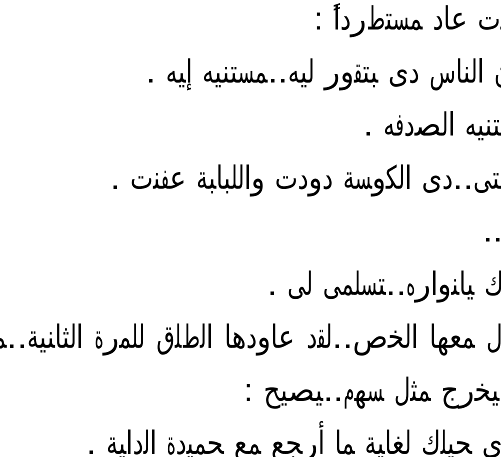
يقف أمام باب الكوخ..يتأمل زرعته..تغمره سعادة غريبة..يحلـق بنظراته بعيداً..بعيداً إلى الحقول المجاورة..مازالت الناس منكبة علـى تقوير الكوسة والقذف باللبابة على أمل أن يحط الأوز علـى الحقـول فيصطادوه وبيضه وأفراخه .

محزون فى دهشة..عبر عن دهشته بكلمات ساخرة :

ناس مجانين .

ما أنت عملت زيهم.

لما قورت ماكانش فى ذهنى إن الوز ينزل عشان أصطاده ولا كنت ساعتها فكرت فى السبب اللى خلانى أقور .



سكت عاد مستطرداً :

لكن الناس دى بتقور ليه..مستنيه إيه .

مستنيه الصدفه .

لإمتى..دى الكوسة دودت واللبابة عفنت .

أى..

مالك يانواره..تسلمى لى .

دخل معها الخص..لقد عاودها الطلق للمرة الثانية..محزون يلـتقط جلبابه يخرج مثل سهم..يصيح :

شدى حيلك لغاية ما أرجع مع حميدة الداية .

ما قبل النـهايـة

خواجه يمتطى حماراً..أحمد البيار..عاد إلى القرية من أمريكا بعـد عشرين عاماً..أتى لإقامة مشاريع استثمارية فى القرية..برفقته العمـدة والشيخ زهرى..خلفهم الخفراء..أحمد البيار يسأل والعمدة يجيبه الأسئلة غبية..ظاهرها غبى..لكن باطنها كله خبث ودهاء.

بقول ياعمدة..هو الدولار فى السوق السودا بكام ؟

العمدة ينظر للشيخ زهرى وكأنه يستلهم منه الإجابة..رد قائلاً :

أربعه جنيه يامستر بيار .

رد عليه هو الآخر فى إستخفاف :

أربعه وللا خمسة ونص .

تحرك الموكب لطريق المصرف..توقف أحمد البيار قليلاً وهو يرى الفلاحين يقورون الكوسة ويقذفون باللبابة..أبصر أكوام اللبابة المتناثرة فى الحقول..إندهش..أفرز دهشته فى سؤال :

الفلاحين بتعمل إيه .

رد عليه حبايب قائلاً :

بيقوروا .

سأل من جديد :

بيقوروا إيه ؟

الكوسة .

سكت..فى حيرة مما يحدث..سأل من جديد :

ليه..بيقوروا ليه .

نظر العمدة للشيخ زهرى..لفترة وجيزة حمحـم خلالهـا عليهمـا الصمت بعدها قال العمده :

منتظرين الوز .

قبل شقشقة الفجر رأى "الضو" عجباً عيطه المدروش بلباس أبيض يسير متخايلاً فى شوارع القرية متصايحاً بصوت بهج :

أيام الظلام عدت وجسور السعد إتمدت .

معجزة وأى معجزة ان يظهر عيطه المدروش بعد موته وتسـاءل الناس فى دهشة هل ما رآه الضو حقيقةً أم أنها هلاوس مخدر ؟ لكـن بعد أيام رآه "دمور" فى الفجر وهو يتوضأ من طلمبة المقابر ثم وهـو يؤم الأموات فوق أسقف المدافن فى صلاة مشهودة إرتفعـت خلالهـا أصوات التكبيرات والدعوات والشكر .. وبعد أسـبوع مـن خبـر ظهور طيف عيطه المدروش دق تليفون قرية كفر المسـاعيد . تلقـى سفايه إشارة من المركز كلماتها تقول "أمريكا أقالت العمدة" .

وحتى لحظة إقالة العمدة مازال الناس فى إنتظار الوز يهبط عليهم من السماء ليلتقط لبابة الكوسة حتى يقطفوه .. لا يعلمـون أن اللبابـة أصابها التلف والعفن وأن أى طائر يعاف رائحتها رغم هذا فما زالـوا فى إنتظار الوز .

إحتوى الخواجه دهشة ممزوجة بالإهتمام..سأل :

وز..أى وز !!

نظر العمدة من جديد للشيخ زهرى..فى نظراته اسـتجداء..علـى الفور استلهم الإجابة من نظراته..أجاب :

وز جاى من الشمال .

فى تلك اللحظة فقط هبط الخواجه من على ظهر الحمـار..حـديث العمده شيق غريب..مثير..عاد يسأل من جديد :

ليه .

رد العمدة فى ثقة :

عشان ينزل ياكل لبابة الكوسه .

الخواجه يسأل من جديد..لقد وصل الحديث لقمة الآثارة :

وبعدما ياكل من اللبابه .

رد العمدة قائلاً :

نصيده .

لم يتمالك الخواجه نفسه..انسابت ضحكاته..وقبل أن تهدأ سأل مـن جديد :

وهو فين الوز .

رد العمدة قائلاً :

ما احنا فى انتظاره .

سأل الخواجه من جديد :

ولإمتى .

رد العمده قائلاْ :

ا أعلم .

ترددت ضحكات الخواجه..إمتطى حماره..وفى اليوم التالي غـادر القرية إلى المطار إلى أمريكا .